UNIVERSAL
LIBRARY
OU_190694
UNIVERSAL
LIBRARY

رواية

في سبيل التاج

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرنسوا كوبيه

مع بعض تصرف

(حقوق الطبع محفوظة)

الطبعة الرابعة

أول مايو سنة ١٩٢٥

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

الثمن ١٠ قروش صاغ

وأجرة البريد قرشان

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

اهداء الرواية

الى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية قد »
« جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة »
« والاخلاص والتضحية ما جَمَعَ لك منها ، فائذن لى أن أهدى »
« روايته اليك ، وأن أقدِّم البطلَ البلقانى ، الى البطل المصرى ، »
« لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ، وان باعد بينكما الزمن ، »
« واختلفت بكما الدار ، فان تفضلت بقبول هديتى وما أحسبك »
« ضانًّا بذلك علىَّ فلتكن جائزتى عندك عليها أن تشهد لى بينك »
« وبين نفسك أننى قد وضعتُ لَبِنَةً [1] صغيرة فى ذلك البناء »
« الضخم الذى شدته لامتك ووطنك ، وحسبى ذلك وكفى »

أول يونيه سنة ١٩٢٠ مصطفى لطفى

المنفلوطى

---

(١) اللبنة واحدة اللبن كـكلمة وكلم وهو المضروب من الطين مربعاً للبناء

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير

حسن بك الفاضل

انصرفت عقول الكتاب والمفكرين فى هذه الايام وفى جميع البلاد الى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التى أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول تحاول انارة السبيل لقادة الشعوب علّهم يستطيعون اقالة هذا العالم من عثرته .

ولقد كان من جراء ذلك أن أُهمل الأدب اهمالا نزل به إلى مرتبة دون التى كان يشغلها فى نفوس القراء والمؤلفين فانحط التأليف الادبى انحطاطاً قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ما هى عليه .

ولم يكن تأثير هذه الازمة الأدبية فى مصر بأقل منه فى غيرها إذ انصرف معظم الأدباء عن فنهم وعلى الاخص فى السنة الاخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى فانقطع ظهور الكتب الادبية أو كاد وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدم اليها من الروايات ورأت صحف الادب

أن لا بقاء لهـا إلا إذا ولّت وجهها شطر السياسة فوقفت جل أعمدتها على شرح وتأويل مايحمله الينا البرق من الاخبار ، وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود اليهـا عزها ونشاطها ، بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد أبت أن تذبل شجرة الادب فى مصر ولما تينع أزهارها فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتاب بل أبقت للأدب أئمته وأنصاره فلم يؤنسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها وظلوا رافعين لواء فنهم فى وسط الزوابع والاعصار عالمين أن الادب أفيد غذاء لروح الأمة وعقلها وأكبر مهذب لأحساسها وشعورها

فى طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه لا أتردد فى ذكر اسم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى لم يبخل على قرائه العديدين بأوقات فراغه فوقفها على الكتابة والتأليف ولم تحل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضع مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة « فى سبيل التاج » التى نقدم اليوم طبعتها الرابعة الى جمهور القارئين

*
* *

فرانسوا كوبيه مؤلف « فى سبيل التاج » شاعر عرك

صروف الزمان وجس بأصبعه مصائب الانسان فلم تزد قلبه مناظر البؤس والفاقة إلا ليناً وحناناً حتى ان القارىء لايرى فى شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه اشفاقاً وحنواً على الذين تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة حتى لقبه عارفوه بحق « معزى المنكودين والبائسين ، وشاعر الضعفاء والمحزونين »

ولد كوبيه سنة ١٨٤٢ ولم تمكنه بنيته السقيمة من تتميم دراسته فانقطع عن تلقى الدرس فى معاهد العلم وانصرف الى قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الاقدمين . وكان يشعر بميل شديد غريزى الى الشعر فنظم منه بضع قصائد لم تصادف اعجاباً من الذين أسمعهم إياها فرأى أن النار أحق بها من المطبعة فأحرقها وطلق الشعر وهجر الادب وسعى حتى حصل على وظيفة فى الحكومة استولى عليها ظناً انه لم يخلق لصناعة القلم وان رغبته فى الشعر ما هى الا نزعة مفتون تصبو نفسه إلا ما لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

بيد أن الفطرة ما لبثت حتى غلبت اليأس فى نفس الشاب فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه فى الغد حتى وفق لكتابة « صندوق البقايا المقدسة La Reli Puaire » ونشره بين الناس فصادف رواجاً وإقبالا شجعاه على الاستمرار والمثابرة

وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفى الحفلات وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه احدى الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلى فنصحت اليه بكتابة شىء للمسرح فعمل بنصيحتها وكتب « عابر السبيل » « Le passant » وهى رواية ذات فصل واحد ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثلتها سارا برنار فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتباً شعرية متتابعة أهمها « المودات Intimités » و « اعتصاب الحدادين » و « المتواضعون » وبعض قصص نثرية منها « المجرم » و « شبوبية Toueune jeunesse » وكثير من الروايات التمثيلية نخص بالذكر منها « عواد كريمون Le Luthier de Grémone » و « مدام ده مانتنون » و « سيفيرو نوريلى » و « فى سبيل التاج »

وفى عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد ينسيه الشعر والادب وتوفى سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخرى لجمعية الوطن الفرنسوية

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة التى امتاز على أقرانه

بأنه لم يقلد أحداً من الاوائل ولا من المعاصرين (والتقليد يكاد لاينجو منه شاعر من الشعراء) وبأن معظم المواضيع التى طرقها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم اليهـا قبله أحد من المؤلفين ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

« ان نفثات قلم هـذا الشاعر قد أثرت فى جميع القلوب وتمكنت منها ، لان أساسها الطبيعة ، وأحسن مايبرع فى الكتابة عنه ويصل فيه الى أعلى طبقات البلاغة ما كان لهمساس بالمشاعر والاخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعـة ، وهـذا النوع من الـكتابة لايتيسر إلا لاصحاب الاذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق وهو يحتاج الى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فان أقل خطأ فيه لايلبث أن يبدو للعيان مجسما وإنه وإن كان فى استطاعة كل انسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هـذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ولـكن لايستطيع أن يسبر كنهه ويتذوّق طعم أدبه إلا من رزق حظاً وافراً من العلم والذوق السليم ، وبالجملة فقُرّاء هـذا الشاعر العظيم كثيرون جـداً ومن جميع الطبقات ولـكن قراءه الحقيقيين قليلون »

*
* *

أما رواية « فى سبيل التاج » التى نحن بصددها فمأساة شعرية تمثيلية وضعها المؤلف فى سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجارى بها عميدى الشعر التمثيلى فى القرن السابع عشر كورنى وراسين وهى رواية أخلاقية بطلها فنى تعارضت فى نفسه عاطفتان قويتان حب الأسرة وحب الوطن فضحى الاولى فداء للثانية ثم ضحى حياته فداء لشرف الاسرة ، ولقد تجلت فى هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة فالأسلوب سهل ممتع والافكار متسلسلة متماسكة والوقائع جلية واضحة وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام

ولقد ذهب النقاد فى تقدير هذا المأساة مذاهب شتى حتى قال بعضهم إنها خير ما أخرج للناس من عهد « راسين » إلى يوم ظهورها

قال الاستاذ إميل فاجيه العضو بالمجمع العلمى الفرنساوى عن هذه الرواية فى الجزء الثالث من كتابه « آراء فى التمثيل » ما معناه :

إذ نظرنا الى ما فى الفصول الثلاثة الاولى من القوة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية ستمثل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وان فرانسوا كوبيه بكتابته للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمن لذكراه الخلود فى ذاكرة الاجيال المقبلة ،

وهو الفصل المعنون فى التعريب بعنوان الجريمة

وقال الاستاذ جول لومتر العضو بالمجمع العلمى الفرنسوى فى الجزء التاسع من كتابه « خواطر فى التمثيل » بعد أن أطنب فى وصف شاعرية كوبيه وفى تقدير مواهبه : ان رواية « فى سبيل التاج » لهى من صنع فنى قدير وشاعر عظيم ورجل ذى ضمير حى وقلب كبير واذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورنى ولا فيكتور هوجو ولاغيرهما من كبار الفنيين

وقال فى موضع آخر من نفس الكتاب : أن المشاهد لتمثيل رواية « فى سبيل التاج » ليشعر منه الهنيهة الاولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملا متقناً وفناً نظيفاً ولقد يكون أحسن مافى هذه القطعة تنسيق الافكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والاشخاص :

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الأدبية فى فرنسا نورده هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الادباء فى الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها

ولقد تناول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هذه المأساة ونقل موضوعها الى اللغة العربية فى قالب روائى جميل بعد أن أضاف اليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة

يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعى وقائعها الألباب بقلم عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لا نطيل الكلام فى وصفها لأن قراء العربيه جميعاً يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفته أن ينقل الى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارىء أن يتبين منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الأصلية المؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملكه فرنسوا كوبيه من نفوس قراء الفرنسية

ولا يفوتنا هنا أن نقول أن الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الراية فى إبّان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحت اليه الحوادث السياسية التى لا تزال ماثلة فى الأذهان صفحات تفيض وطنية وغيرة حتى لكأنه قد أفضى الى أمته فى هذا الكتاب بكثير مما لا يستطع كتابته فى الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيراً ما كنا نعتب عليه فى سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين فى هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فاذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلا واذا الرواية رواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها

وبالجملة فرواية « فى سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة

فى ثوب قصة خيالية تملك لب القارىء بجمالها وتتولى تهذيب نفسه بآدابها وفضائلها ، وما أحوجنا أن تجرى الأقلام الأدبية فى هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطى فى هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنيه إلى أعماق القلوب وتتغلغل فى شغافها الا من هذا الطريق ؟

أول يونيه سنة ١٩٢٠ حسن الشريف

مقدمه

لايزال التاريخ يحفظ فى صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التى وقعت فى القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانيـة تريد افتتاحها والاستيلاء عليها فدافعت الثانيـة عن نفسها دفاعاً مجيـداً استمر زمناً طويلا حتى غلبت على أمرها فسقطت فى يد القوة القاهرة ودخل الترك أرض البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الاتاوات الثقيلة وعزلوا ملـكها الذى كان يحاربهم ويناوئهم وملـكوا عليها ملـكا من أهلها اسمه « ميلوش » فلبثت فى حكم الاتراك عهداً طويلا عانت فيـه من ضروب الذل والهوان مايعاينه كل شعب مغلوب على أمره ، حتى قيّض الله لها رجلا من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف « أتين » عز عليه ضياع بلاده وسقوطها فى يد أعـدائها وان تتحول فيها الـكنائس الى مساجـد وتجأر فى أرجائها أصوات المؤذنين بدلا من أصوات

النواقيس وأن لايجد المسيحيون فى عقر ديارهم مكانا يؤدون فيه فروض صلواتهم غير الصحارى والفلوات فأخذ يتنقل فى أرجاء البلاد ويمشى بين شعوبها وقبائلها يدعوا باسم الدين مرة والوطنية أخرى ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها : وكذلك تتفق كلمة الأمة أمام الخطر الداهم والقضاء الشامل

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزية والاتاوة وينادى بحرية البلقان واستقلاله فجبن الملك عن ذلك فى أول الامر ثم أسلس له وأذعن لرأيه ففعل ماأشار به عليه ، فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم وضغينتهم فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيما وافر العُدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام « أُرْطُغْرُل باشا» فثار البلقانيون جميعاً رجالا ونساء للدفاع عن أنفسهم والذود عن وطنهم واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغارى العظيم الأمير « ميشيل برانكومير » فظل يحارب الاتراك عدة أعوام يدال له عليهم فيها ويدال لهم عليه ولكنهم لايستطيعون اجتياز حدود

بلاده واقتحام جبالها حتى عيَّ القائد التركى بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه إلا من طريق الدسيسة والكيد وكذلك فعل

﴿ الجاسوس ﴾

اجتمع جنود الفرقة البلقانية الأولى ذات ليلة فى معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقار البوهيمى المسكين « بانكو » الذى كان يفد الى معسكرهم كل ليلة يغنيهم قطعاً حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه ويطربون ويحسنون اليه بما فضل من زادهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون فى شأن ذلك الحادث العظيم الذى حدث فى بلادهم منذ أيام وهو موت الملك « ميلوش » وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده فانقسموا فى رأيهم قسمين ، فريق يرى اختيار الاسقف « أتين » وفريق يرى اختيار القائد « برانكومير » فقال الجندى الروماني « أورش » وهو من أشياع الاسقف وأنصاره : نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير ولكن من الذى مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء على الجيش ؟ أليس الاسقف أتين ؟

من الذى ينكر أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذى طاف البلاد من أقصاها الى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم ويستثير حفائظ النفوس ويستحيى ميت العزائم ويَهيج عاطفة الثأر والانتقام فى نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات ويُلقى على تلاميذ المدارس فى مدارسهم أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها فى مسارحهم وملاعبهم ومغداهم ومراحهم ؟

من الذى ينكر أنه هو الذى علم الشعب البلقانى دروس الوطنية الشريفة العالية وغرس فى قلوبهم أن الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الامم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التى ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها فى يد غاصبها إنما هى أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروحَ الوطنية العالية ويملى عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة حتى صفت ضمائرهم من أدران الذل والمهانة وأدركوا من معنى الحياة مالم يكن يدركه آباؤهم من قبل . فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن

وذادته يبذلون فى سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم مالا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة فى سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها ويتقدمون الى الموت زرافات ووحداناً فرحين متهللين كأنهم ذاهبون الى مراقص « فيدين » وملاعبها ، لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التى يبذلونها فى سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هى المداد الأحمر الذى تُسجل لهم به فى صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار ، وأن الأشلاء التى ينثرونها فى تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم انما هى البذور الطيبة التى تُنبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف

من منا يجهل أنه هو الذى استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الاسد الهصور ويصيح فى وجهه قائلا له : حتى متى أيها الملك الضعيف المهين تبيع وطنك وأبناءه لأعدائك وأعدائه بيع السلع المعروضة فى حوانيت التجار بأبخس الاثمان وأدناها : والى م تضع هذه السلاسل والاغلال فى أعناق أبناء أمتك لتقودهم بها الى حيث يمرغون جباههم الشريفة تحت مواطئ أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف ولو حققت أمرك لعلمت أنك نخاس دنىء يبيع الرقيق

فى سوق النخاسة ، بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر فى أبناء أمته ولا فى أفراد أسرته ، فاهتز الملك لكلمته هـذه اهتزاز القصبة الجوفاء بين مهاب الرياح وطأطأ لها رأسه إجلالا وإعظاماً ولم يلبث أن عزم عزمتـه الشريفة التى ترونها اليومَ والتى أنقذت الوطن من العار ، ورفعته الى ذروة المجد والفخار

وهنا ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وصاحوا أحسنت ياأورش ، أحسنت إحساناً عظيما ، الاّ نفراً قليـلا من أشياع القائد وصنائعه فانهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا بها ، وقام أحدهم واسمه « لازار » وكان الحارس الخاص لقصر القائد وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة «بازيليد» وطلب الاذن فى الكلام فأذنوا له فقال : إنى لا أريد أن أعترض على صديقى « أورش» فى كلمته التى قالها فى فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل فى خدمة الدين والوطن ، ولكنّ الذى أراه واستصوبه أن لرجال الدين شؤوناً خاصة بهم لا يجمل بكرامتهم أن يتعدوها الى غيرها من أعمال الحياة ، وإني أضن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عن شؤون الدين التى نصب لها نفسه طول حياته ، والرأى الذى أراه أن يعهد بالملك الى القائد « ميشيل برانكوميز» ليقود الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التى قاد بها

الجيش ورفعه الى مناط السماك الأعلى ، فاعترضه جنـدى كان جالساً على مقربة منه وقال له ولم لا تضن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عما هو بسبيله من قيادة الجيش وتدبير شؤونه ؛ فأجاب إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، أما الشؤون الدينية فلا علاقة لها بالشؤون الدنيوية بحال من الاحوال ، فدعوا الكاهن مستريحاً فى معبده مستغرقاً فى صلواته وعباداته واختاروا لملككم رجل الأمة وبطلها وحامى ذمارها وحماها الامير برانكومير ، فعلت أصوات الصاخبين والصائحين والمستحسنين والمستهجنين وذهب كل فى صيحته المذهب الذى يراه ويتشيع له

وانهم لكذلك إذا بصوت صارخ فى وسط هذه الضوضاء يقول استمعوا منى أيها القوم كلمة واحدة هى فصل الخطاب فى قضيتكم هذه ولا أطلب اليكم أن تستمعوا منى سواها ، فالتفت الجمع فاذا الضابط « ألبير » وهو جندى شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه فى منزله فى عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته ولم يفارقه الآ منذ عامين اثنين أى بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ، فانصتوا اليه فاذا هو يقول « أنتم تعلمون جميعاً صلتى بالقائد برانكومير ومكانتى عنده وانى أعرف من

شؤونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيرى ، ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياه بعد تجربة عشرين عاماً قضيتها فى خدمته انه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودنایاها وأنه جندى صميم معتز بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أى مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وغلت قيمته، فمن ظن منكم أنه يرضيه ويجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ فى ظنه خطأً عظيما ، وان كان للأسقف « أتين » مزاحم على الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكومير » فهدأت الاصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة الرزينة التى ينطق بها جندى شريف صادق وكادت تكون فصل الخطاب فى القضية لو لا ان « أورش » وهو ذلك الجندى المتشيع للأسقف والداعى له قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر الى الجندى ألبير مبتسما ابتسامة الهزء والسخرية وقال له : نعم يا سيدى إنك صادق فيما تقول لم تزد حرفاً على ماتعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لى أن أقول لك إنك انما تحدّث فى كلامك عن الماضى القديم الذى حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فان أذنت لى حدثتك عنه وقلت لك إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وان

تلك النفس العالية المترفّعة التى كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم الى نفس توّاقة متطلّعة تصبو الى المعالى وتفتتن بالعروش وأنه هو الذى يدعو بنفسه الى نفسه ويرسل الدعاة فى كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك ، فاستطير « ألبير » غضباً وقال أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وانه قد أصبح رجلا صغير السن متبذّلا ، قال لا ، ما الى هذا ذهبت ، ولكنى أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً فى شؤون حياته لرأى غيره لا لرأى نفسه ، وربما لو ترك وشأنه لكانت له فى حياته خطة غير هذه الخطة التى ينتهجها اليوم ، فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم فى وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان وسمع الخطيب اسم « قسطنطين » يتردد مراراً فى أفواه الهامسين فصاح فى القوم : أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون اليه ، فان ابن قائدنا وزهرة شبيبتنا وضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون ، فصرخ لازار : قل من هو الشخص الذى تريد ، فجلس « أورش » ولم يقل شيئاً ، الا أنه همس فى أذن جندى كان بجانبه « الزوجة الجديدة » ، فسرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء فى أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقار « بانكو » فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لأنه لم يكن

موسيقاراً بوهيمياً كما زعم ، ولم يكن اسمه « بانكو » كما يسمونه بل هو الضابط المشهور ابراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركى العظيم أُرطُغرُل باشا ، وقد وجد فى هذه الكلمة التى سمعها ما كان يريد أن يكون وعنر بالثُّلمة التى ينحدر منها الى أغراضه وما آربه

وما آوى القوم الى مضاجعهم وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم حتى دبَّ ذلك الجاسوس المتنكر على يديه حتى بلغ مضجع الجندى « لازار » حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس فى أذنه ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة « بازيليد » زوجة القائد الجديد حتى تمّ لهما الاتفاق على ما يريدان ، ثم أسلما عيونهما الى الكرى فناما

﴿ قسطنطين ﴾

توفيت زوجة الأمير برانكومير منذ عامين وكانت امرأة من النساء الصالحات الفاتنات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى ، فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الاخلاق الكريمة كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال المكاره فى سبيل خدمة الوطن والأمة فكان خير ابن لخير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمنى ودرعه الواقية الامينة فى جميع وقائعه ومشاهده حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حبًّا كاد

يرفعه الى مافوق منزلة أبيـهِ لولا حرمـة الأبوة وجلالُ الشيخوخة ومكانُ التاريخ ، فلما ماتت أمه تزوّج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصرة بيزنطية « القسطنطينية » وهى فتاة جميلة ساحرة تستهوى القلوب وتختلب الألباب ذات نظرات غريبـة لامعة يقضى المتفرس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختـلابَ والافتتانَ من عهد بعيـد ، فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منـه أحد من قبلها ولا من بعـدها حتى زوجتـه الصالحة وولده النجيب ، فأصبح مستهاماً بها مستسلماً اليها ، لايصدع إلاّ بأمرها ، ولا يصدر إلاّ عن رأيها ، ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبها ، ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا اذا هبت عليه من ناحيتها ، وكانت امرأة طموحاً متطلعة لايعنيها من شؤون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ولا يغلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها ومصارع قومها فى « بيزنطية » بيد الاتراك الفاتحين ، وكانت لاتزال تتحدث فى مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ لها بعض المتنبئين ، ومجملها أن كاهناً عرافاً دخل منزل أبيها وهى طفلة لَعوبٌ لاتزال تحوم حول مهدها فنظر اليها طويلا ثم قال لأمها « إن ابنتك هذه ستكون ملكة

عظيمة الشأن فى مستقبل أيامها » وربما كان اهتمامها بهذه النبوءة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب فى قبولها الزواج من شيخ هرم مدبر قلما يُعنى بمثله مثلُها على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانيها

فظلت تَغرس فى نفسه هـذه الأُمنيّة الجميـلة المحبوبة مدة من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها حتى ملأت بها فضاء قلبه وشغلته بها عن كل شاغل سواها

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك « ميلوش » وجاءت الساعة التى تنتظرها ، فهتفت به : ها قد حانت الفرصـة التى كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبـير التى تنبأ لى بها ، وماهو بالكاذب ولا المتخرّص ، ثم زجّتْ به فى طريق مزاحمة الأسقف « أتين » على الملك فانقاد لها ومشى فى الطريق التى رسمتها له وأخذ يدعو الناس لنفسه ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ويداخل أعضاء الجمعيـة الوطنية ويداهنهـم ويتوسل اليهم أن يساعدوه على نيل أمنيته التى يرجوها مُدِلاًّ بمكانته من خدمة الأمة والوطن وأياديه فى الذود عنهـما وبما بذل من صحته وشبابه فى مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدَر المؤدى الى القبر

هذا ما كان يشغل القائدَ وزوجتَه فى ذلك التاريخ ، أما ابنهُ قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله ، فان وفاة أمه التى كان يحبها حباً شديداً تركت فى نفسه أثراً من الحزن لا يبلى ، وملأت فضاء حياته هماً ونكداً ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهمّ الذى نزل به فى حنان أبيه عليه وعنايته به حتى تزوّج من تلك المرأة اليونانية وأسلم اليها نفسه وقلبه ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كلّ أمل له فى الحياة ، وأصبح يشعر فى نفسه بذلة اليُتم التى يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة

فكان يخاطر بنفسه فى المعارك التى يحضرها مخاطرةَ اليائس المستقتل راجياً أن يريحهُ الموت من هموم نفسه وآلامها ، فزج بنفسه ذاتَ يوم فى معركة كبرى استبسل فيها استبسالا عظيما واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبهُ فلم يبلغ أمنيته التى يتمناها ، ولكنهُ انتصر فى تلك المعركة انتصاراً باهراً وأنقذ من يد الترك شعب « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز الاكبر لحركاتهم وأعمالهم

وانه ليتأثر الجيشَ المنهزم ويشتد فى أعقابه إذ لمح على البعد فارساً تركياً قابضاً بيده على شعر فتاة مسكينة يريد اقتسارها

واكراهها على الركوب معه وهى تمتنع وتتأبّى وتحاول الافلات من يده فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً : فأزعجه هذا المنظر وآلمهُ فركض جوادَه حتى أدرك ذلك الفارس فضربه على هامته بسيقه ضربة قضت عليه ، فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقائها ويقودها معه الى حيث يشاء ، فرثى لحالها وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئاً فأردفها خلفه وركض بها حتى بلغ موضع الخيام فتركها بين الاسرى وعاد من تلك الموقعة ظافراً منصوراً يهنئه الشعب ويهتف له فى كل مكان يمر به حتى وصل الى القلعة الكبرى فدخل على أبيه وألقى بين يديه الاعلام التى غنمها فى المعركة فأمر برانكومير بقتل الاسرى وكان ذلك شأنه فيه كلما قدموا اليه حتى جاء دور الفتاة فجثت بين يديه ومدت اليهِ يدها مستغيثة تطلب العفو وتقول له إنها فتاة نوَرية مسكينة لا شأن لها فى الحرب ولا علاقة لها بأهله وإن أمها باعتها منذ عامين من جندى تركى أساء عشرتها وعذبها عذاباً أليماً حتى قيض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنقذها من يده ، وأشارت الى قسطنطين

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له انى قد أنقذت حياتها بالأمس فأنقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتى

الوحيدة من الغنيمة وأعدك انى لاأطلب غنيمة سواها ، فأحفظ ذلك قلبَ الاميرة « بازيليد » زوج أبيهِ وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت اليهِ نظرة الازدراء والاحتقار وكان هذا شأنها معهُ كلما التقت به وأنشأت تنعى عليهِ اهتمامه بشأن فتاة نورَية راقصة ظريدة غابات وفلوات ، وربيبة حانات ومعسكرات ، وقالت له ، لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجندى الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقى بمثلها الى حارس من حراس بابك أو جندى من جنودك يتلاهى بها كما يتلاهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله بدلا من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة

فثارت ثورة الغضب فى نفسه وأضغنه عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف وكان يعلم من شؤون نفسها وخبايا قلبها مالا تظن أنهُ يعرف شيئاً منه فنظر اليها نظرة شزراء ملتهبة وقال لها وهو يعلم ان ماسيقوله سيغضبها ويؤلمها ويملأ صدرها غُصة وحنقاً : ان الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا تراباً لنا تدوسهُ أقدامنا وتطأه نعالنا كلما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منهما أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، ونستنزف بها دماءهم ، وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لايملكون

من القوة والعزة مثلما تملك ، ولا يذودون عن أنفسهم بمثل مايذود

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا أو أعزّ وأقوى منا لخفناهم وأتقيناجانبهم ونظرنا اليهم بعين غير العين التى ننظر بها اليهم اليوم ، لأن القوى الذى يتنمر على الضعفاء لابدّ أن يكون جباناً ذليلا أمام الأقوياء

اننا الآن فى حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جوره وظلمه واستضعافه ايانا واستطالته علينا بقوته وكثرته ، فجدير بنا أن لانفعل ماننقمه منه ونأخذه بهِ ، عسى أن يرحمنا الله وينظر الينا بعين عدله واحسانه وينتصفَ لضعفنا من قوتهِ ، وقلتنا من كثرته

إنالانحمل هذه السيوف على عواتقنا لنقتتل بها النساء والأطفال والضعفاء والعزّل الذين لاسلاح لهم ولا قوة فى أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء فى ميادين الحروب ومواقف النزال

إنى لاأعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة ، وإن هذه البائسة المسكينة التى تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليهِ بقدمها ، بل هكذا قدر لها أن تنبت فى هذا المنبت القذر الوبىء فو بئت وقَذَرت وليس فى استطاعتها أن تعود الى العَدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقاً

جديداً فى جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها وما هى جريمتها ، وأى حيلة لها فى هذا المصير الذى ساقها القدر اليه؟

انما الاثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ويحولون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير الى طريق الشر إيثاراً لها وافتتاناً بها ، أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشتد فى مؤاخذتهم ، أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم فى شأن أنفسهم ولا حيلة فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبنا ولومنا ، فان وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التى هووا فيها فذاك ، أولا فلندعهم وشأنهم تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذاهبها ، ولا نزدهم بكبريائنا واستطالتنا بؤساً على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم

إننا ما أُصبنا بما أُصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداهية الدهياء التى نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا الا من ناحية كبريائنا وخيلائنا واعتدادنا بأنفسنا فى جميع شؤوننا وأعمالنا ، واحتقار غنينا لعقيرنا ، وقوينا لضعيفنا ، وسيدنا لمسودنا ، فسلط الله علينا ذلك العدو القاهر الذى لا يعتمد فى جميع شؤونه ومواقعه إلا على قوته وأيده ، لاننا لم نعتمد فى يوم من أيام حياتنا

فى جميع صلاتنا وعلائقنا إلا على قوتنا وأيدنا ؟ والجزاء من جنس العمل ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

فاصفر وجه بازيليد واربدت شفتاها وكانما خيل اليها انه يلمزها ويزنيها ويشير فى حديثه الى ماضيها القديم وحوادث صباها السالفة فصمتت ولم تقل شيئاً إلا انها انتحت ناحية وأخذت تبكى وتنتحب ، والدموع هى السلاح الوحيد الذى تعتمد عليه المرأة فى جميع شؤونها وعلائقها ، فعظم الامر على برانكومير وأكبر أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب الجافى الغليظ فأنحى عليه باللائمة الشديدة وقال له : انك لم تسئ الى نفسك فى تنزلك الى حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها بقدر ما أسأت الى أبيك فى مجابهة زوجته ومغايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ، ولولا هذه الرايات الحمر التى ألقيتها اليوم تحت قدمىّ بأهلتها البيضاء لما اغتفرتُ لك هذه الجريمة التى اجترمتها ، فاذهب لشأنك ولا تعد الى مثلها

وكذلك تم لقسطنطين ما كان يريده من إنقاذ تلك الفتاة المسكينة من يد الموت بعد ما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها الى الجناح الذى يسكنه من القلعة وجلس اليها يحادثها فى شأنها وشأن ماضيها ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها فلم ير

بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطناً ولا بيئة ولا تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فرد مبهم من أفراد هـذا المجتمع المائج المضطرب ، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره ، لا تعرف الآمال ولا تفكر فى المستقبل ، ولا تحفل بالماضى ، ولا يتسع عقلها لأكثر من الساعة التى تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ، ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ولا تشغل ذهنها بترتيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر اليها نظر الأب الرحيم الى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمى سيده ، لا تحدثه حتى يحدثها ، ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها ، وكان يقول فى نفسه كلما نظر اليها والى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته : أهكذا قضى على الانسان فى هذه الحياة ألا تخلص نفسهُ من شوائب الرذيلة والشر حتى يُسلب عقله وادراكه قبل ذلك ، وألا يُمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يحرم فى مقابله مقداراً من الفطنة والذكاء ، فليت شعرى هل عجزت الطبيعة عن أن

تجمع للمرء بين هاتين المزيتين ، مزية العقل الذى يعيش به ، والخُلق الذى يتحلى بحليته ، أو أنّ لله فى ذلك حكمةً لا نعلمها ولا ندرك كنهها ؟

وكأنما كان يشعر فى نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذى عجزت يد الطبيعة عن صياغته ، فبدأ يهتم بشأنها اهتماماً عظيما ، ويتبسّط معها فى الحديث تبسُّط النظير مع نظيره ذاهباً معها فى كل واد من أوديته مَعنيًّا كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذى كان يعامه به معامه فى المدرسة ، فأرشدها الى وجود الله لا من طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ، وأرشدها الى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب فى الثواب والتخويف من العقاب ، ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ولتمتزج الفضيلة بنفسها امتزاجاً لا تزعزعه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر انها شعرت بمثله فى حياتها فى حديث أىّ متحدث يتحدث اليها ،

وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف الى مجالستها ومثافنتها والنزول على حكمها فى ما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهى تحاوره : انك تحدثنى يامولاى كأنك لاتعرف من أنا ، قال إنى أعرفك كما تعرفين نفسك وأعرف انك أختى فى الانسانية وهى الأم الرؤوم التى لايستطيع أحد من بنيها أن يَمُت اليها بأكثر مما يمت به اخوته ، وما للأخت ملجأ تلجأ اليه فى شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت ولكنك تعلم أنى فتاة مذنبة ساقطة ، قال كل الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها ، قالت : لم أر فى حياتى مذ نشأت حتى اليوم عفيفاً قط ابتسم فى وجهى ، قال ذلك لان الناس مراءون مخادعون يزعمون لانفسهم من الفضائل والمزايا ماتنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويذدرونه لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهموا الناس انهم غير مذنبين ، ولو انهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا وتهادنوا ولما آخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرة

وكذلك أصبحت ميلتزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه

وآلامه ، فقد وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التى طالما نشدها قبل اليوم فاضلها ، وتطلبها فاعياه طلابها ، ووجد فى صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذى بكاه وندبه ندباً شديداً يوم ماتت أمه ويوم تولى عنه حنان أبيه ، وكان يتحدث معها فى كل شىء من شؤون الحياة دقيقها وجليلها ويفضى اليها بكل خبيئة من خبايا نفسه إلا ذلك الهم العظيم الذى كان يعالجه فى أطواء نفسه وأعماقها ويكابد منه مايقلق مضجعه ويصل ليله بنهاره ، وهو استحالة حال أبيه وانتقاض قلبه عليه وانقياده ذلك الانقياد الاعمى الى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التى لايعنيها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه سلماً تصعد عليها إلى سماء المجد ثم لاتبالى بعد ذلك أن تدفعه بقدمها بعد بلوغ غايتها فيسقط فى الهوة التى قدر له أن يهوى فيها ، إلا أن ميلتزا الذكية بفطرتها المتفانية فى حبها واخلاصها لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطنتها وذكائها فى تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه ذلك الهم الخفى المكتتن ، وكان يساعدها على فهمه واستكناهه تلك الاحاديث التى كانت تسمعها تدور من حين الى حين بين القائد وزوجته عند ما كانا يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهى جالسة تحت بعض الجدران أو فى ظلال بعض الاشجار لايحفلان بها ولا

يلقيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها « إننى أحبك يا بازيليد حب المرء نفسه التى بين جنبيه ، ولقد عشت حياتى كلها قانعاً من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، لذة القتل والاسر وسفك الدماء وتقطيع الاوصال ، حتى رأيتك تتطلعين الى تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحببته من أجلك وأصبحت لا أقترح على الدهر أمراً سوى أن أرى تلك الجبهة اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع ، فلا تيأسى منه ولا تقنطى ، واعلمى اننى سآتيك به وان كان كوكباً نائياً فى آفاق السماء ، أو درة راسبة فى أعماق البحار » وسمعتها مرة تقول له » ما أجمل وجهك يا برانكومير ، وما أبدع ضياءه ولألاءه وما أنصع هذه الشعور البيضاء التى تدور به دورة الهالة بالقمر ؟ وما أجمل تاج الملك يوم يوضع على رأسك فتتحد الاضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها فى بعض فتتراءى فى أجمل شكل وأبدع منظر ، إنك ستكون ملكا يا مولاى وستكون أعظم ملوك العالم شأناً وأرفعهم مقاماً وستجتمع فوق عرشك الرفيع الامجاد الثلاثة مجد النسب ، ومجد الحروب ، ومجد الملك ، وقد ألقى الكاهن فى نفسى كلمته التى تنبأ لى بها وما بالكاذب ولا المجنون ، فكن على ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا

خطوة واحدة فاخطها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التى تريد « وسمعتها مرة تقول له » اننى لا أخاف على أملنا أحداً من الناس سوى ولدك قسطنطين . فقد علمت أمس من بعض أصدقائه انه ينكر عليك كل الانكار هذه المسعى الذى تسعاه اليوم ، الا سمعت أنه يثبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويلقى فى قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد حدثنى عنه بعض الناس أن ذاكراً ذكر له مرة ولاية العهد مهنئاً اياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظاً شديداً وقال له : اننى جندى ولدت فى ساحة القتال وسأموت فيها « وأن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع فى الجيش والشعب كولدك لا بد أن تترك أثراً سيئاً فى نفوس الناس جميعاً وتفت فى عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً فى القضاء على آمالك وأمانيك ، ولا أعلم لخطته هذه سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذى لا يزال يضمره لى فى أعماق قلبه مذ دخلت بيتكم حتى اليوم وما أذنبت اليه ذنباً ولا أسلفت عنده جريرة فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يرانى جالسة على العرش بجانبك استظل بظل نعمتك وأشاركك فى التمتع بمجدك وسلطانك ، فقاطعها الامير وقال لها : لا تصدقى يا بازيليد شيئاً مما يقولون . فقسطنطين أبر

بى وأعظم حباً وإخلاصاً من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أنى أرغبها وأصبو اليها ، ولا أعلم أنه يبغضك أو يضمر لك فى نفسه شيئاً من الشر الذى تذكرين ، بل هو يحترمك ويجلك اجلاله إياى ويحب لك من الخير ما يحب لى ولنفسه ولا يؤثر على مرضاتنا شيئاً »

وكذلك ظلت ميلنزا تسمع أمثال هذه الاحاديث فتعلم منها ما يدور بنفسى هذين الشخصين الطامعين وتعلم أن هذا الذى يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذى يعالجه قسطنطين فى أعماق قلبه ويكابده ، ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل اليه شيئاً مما سمعته اعظاماً له وإجلالا وضنا بنفسها وبأدبها أن تفاتحه فى أمر لم يشأ هو أن يفاتحها فيه

﴿ التاج ﴾

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر فى انتخاب الملك الجديد فنظرت فى المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى فرأت أن العدو لايزال على الابواب وأنه لايزال قوى الشكيمة صعب المراس وأن الوطن يحتاج الى الامير برانكو ميرقائداً أكثر مما يحتاج اليه ملكا وأن الاسقف « أتين » أعظم رجال المملكة

عقلا وأسماهم ادراكا وأقواهم سلطاناً على نفوس الجيش والشعب فقررت تقليده ملك البلقان وأعلنت قرارها فى جميع أنحاء المملكة فقابله الشعب بالرضا والتسليم ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ورجال السياسة والجيش ما عدا القائد برانكومير، فلم يأخذه الملك بهذه الهنة بل أعتبه وأعطاه من نفسه الرضا، ولم يقنع فى أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر الى الحدود لزيارته فى قلعته، وما لبث أن سافر فى جمع من حاشيته وجنده، وكانت رسله قد تقدمته لأنباء القائد بمقدمه فامتعض لذلك وتمرمر وكادت تحدثه نفسه أن يسافر الى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه لولا أن أشارت عليه بازيليد بغير هذا الرأى فأذعن لها راغماً ونزل لانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر، فحياه الملك حين رآه تحية الاجلال والأعظام وعانقه عناقاً طويلا وقال له: أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الأمر والنهى فيه فهو أنت يابرانكومير، أما أنا فانى خادمك الأمين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك وامدادك بما تحتاج اليه من العدة والمؤونة، واعلم أن الامة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت

أن أحداً أجدر بهما منك ، ولكنها ضنت بك أنت ، وأنت حصنها المنيع ودرعها الواقية وبطلها الذى لا يُغنى غناءه فى موقعه أحد — أن يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذى أنت فيه والذى نصبت له نفسك طول حياتك ، فآثرت بقاءك فى هذه القلعة تحميها وتحمى المملكة بحمايتها : فان لم تكن الملك الجالس على عرش « فيدين » فأنت الملك المتبوىء عرش الافئدة والقلوب ، واعلم انى ما قدمت اليك مقدمى هذا لاعتذر عندك من ذنب أذنبته اليك أو لأتوجع لك من كارثة نزلت بك لانى اعلم انك أجل وأرفع من أن تعتبر عِبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك النصر الذى نرجوه لانفسنا فيأمن الباقان أبد الدهر أن تخفق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح أو يَرن فى أجوائه صوت غير صوت الله

ثم تقدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلى له وبرانكومير يتميز غيظاً وحنقاً ولكنه يتجلد ويستمسك حتى قرع الاسقف من شأنه ، فلم ير بداً من أن يستقبل حفاوته بمثلها فمد اليه يده وهنأه بالملك واعتذر اليه عن تقصيره فى حضور حفلة التتويج فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هانئاً مغتبطاً لا يرى إلا انه

قد أرضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً فشيّعه القائد الى ضاحية المدينة ولبث واقفاً مكانه ساعة ينظر الى ذلك الموكب الفخم العظيم ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة حتى غاب عن بصره فانقلب الى قصرة ثائراً مهتاجاً يصيح ويجأر ويهذى هذيان المحمومين حتى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على الجماهير الغادية والرائحة فى طرقها ومذاهبها وأنشأ يحدث نفسه ويقول :

تباً لك أيها الشعب الخائن الغادر لقد جازيتنى شر الجزاء على عملى وكفرت بنعمتى التى أسديتها اليك ويدى التى اتخذتها عندك أيام كنت أسهر لتنام وأشقى لتسعد وأقضى ليالىّ الطوال سجيناً فى قلعتى لا أبرحها ولا انتقل منها لأدبر لك أمر الحماية التى تحميك وتصون أرضك وديارك وأنت لاه لاعب ، هانىء مغتبط يمرح عامتك فى منازههم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، ويقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء فى قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائى عندك أن ضننت على بالعرش الذى أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه وعمده ، وآثرت به كاهناً مأفوناً لا شأن له فى حياته سوى أن يمسح رءوس الاطفال ويهمهم حول أسرّة الموتى ، فبئس ما جررت على نفسك من الويل فى فعلتك التى فعلت ، وبئست الساعة التى

رأيت فيها هذا الرأى الفائل الخطل ، لقد فللت بيدك سيفك الذى كان يحميك ويصونك ، وأطفأت جذوة الحماسة فى صدر قائدك الذى كان يذود عنك وعن عرضك ويحمى أرضك وديارك ، فابتغ لك بعد اليوم قائداً يتولى حمايتك وصيانتك ، أو فاطلب الى أسقفك التقى الصالح الذى توجته بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء

وإنه ليردد فى موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد والشر على العالم بأجمعه اذ دخلت عليه الأميرة باسمة متطلقة تختال فى حللها وحلاها فأخذت بيده وقالت له أرفق بنفسك يابرانكومير واعلم أن نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، وأبشرك انك ستكون بعد شهر واحد ملكا على البلقان ، ولا تسألنى كيف يكون ذلك ، فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلمتها وماتاها فلم تمكنه من ذلك لانها تهافتت عليه واعتنقته ووضعت على فمه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حدته وغضبه ، ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها

﴿ المؤامرة ﴾

اضطجعت بازيليد فى سريرها وجلست خادمتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث تلك الآمال الحسان التى لاتزال تتراءى لها فى يقظتها وتحلم بها فى منامها ، وإنهما لكذلك اذ قرع الباب قرعاً خفيفاً فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له فاذا « بانكو » الجاسوس التركى متنكراً فى زى الموسيقار المسكين ، فدخل وحيا الأميرة تحية الاجلال والاعظام ثم أخذ مقعده الذى كان يقتعده من الغرفة فى كل ليلة وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التى كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهويها حتى أتمها ، فطربت لها طرباً شديداً ، ثم دعت خادمتها فأرسلتها فى بعض الشؤون ، فلما خلا بها المكان ألقى الموسيقى قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التنكر ثم مشى الى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم فى المسألة يا بازيليد . فقد طال مقامى فى هذا البلد وأخشى أن يرتاب بى أحد ، وليس فى استطاعتى أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأنى

فاعتدلت فى جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأمير ليلة أمس

فى المسألة وعرضت عليه مقترحك الذى اقترحته فأصغى الى حديثى فى مبدأ الأمر ، ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه وا كتأب وأبى أن يقبل منى كلمة واحدة فى هـذا الشأن ، وظل يقاطعنى ويعارضنى معارضة شديدة فلم أشأ أن ألح عليـه مخافة أن يرتاب بي وبمقصدى ، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعـد رجوعه من المعسكر وأرجو أن ينتهى باذعانه وتسليمه ، ولا يفتك ياسـيدى ان من أصعب الأمور على رجـل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحول فى ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطنى مخلص يبذل دمه وحياته فى سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه الى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة ، فلابد من مهادنته ومؤاتاته وأخذه بالروية والتؤدة

قال ليس فى الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة ، فانا لانريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا فى افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم فى حريتكم الدينيـة والاجتماعيـة ، أو نسلب أموالكم وتنتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم ، إلا لنكون

أعوانكم على ترقيـة شؤونكم الجماعية والاقتصادية والسير بكم في طريق المدنية الأدبيـة والسياسـية ، حتى تبلغوا الذروة العليا منهـما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجربين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقاءكم المخلصون الاوفياء ، من حيث تظنون اننا أعداؤكم وخصومكم

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهزء والسخرية ونظرت اليه نظرة عتب وتأنيب وقالت له : ان برانكومير ياصـديقي ليس موجوداً معنا لنخدعه بأمثال هذه الاساليب الكاذبة ، أما أنا فاني لاأنخدع بها ولا أغتر ، لانى أعلم كما تعـلم أنت وكما يعلم الساسـة الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من عهد آدم الى اليوم وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم ، ولا يمتلكونها لرفع شأنها واصلاح حالها والأخذ بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول ، بل لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها وقتل جميع مواد الحياة فيها ، والأمة ان لم تتول اصلاح شأنها بنفسها لاتصلحها أمة أخرى مهما حسنت نيتها ونيل مقصدها ، والصلاح ان لم ينبت في تربة الامة نفسها ويزهر في جوها ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم

لا ينفعها ولا يجدى عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التى تنقل من مغرسها الى مغرس آخر ، فهى تزهر فيه أياماً قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوى

فان وجد بين أولئك الطامعين من يذهب فى سياسته الاستعمارية مذهب الاصلاح والتشييد ، فكما يسمن صاحب الشاة شاته ليذبحها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالرى والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها

أما الحرية الدينية التى تريدون أن تمنوا بها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً ، ولا تقف لكم فى سبيل مطمع ، وقديماً كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بارضائها فى شؤون دينها ، ليسلبوا شؤون دنياها ، ويوجهون نظرها الى الشؤون الروحية الخالية ، ليقطعوا عليها طريق النظر فى الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم فى ذلك مثل اللص الذى يدس لمن يريد سرقته مادة مخدرة فى طعامه لا تكلفه إلا ثمناً يسيراً ليستولى على الجم الكثير من دنانيره ودراهمه ، على أن القوة الدينية فى الامة أثر من آثار القوة السياسية ، فاذا ضعف أمر الامة فى سياستها ، ضعف أمرها مع الايام فى دينها ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته

الا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الارض عدو سواكم ، فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل هم يطمعون فى شيء أكثر مما تطمعون فيه أنتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذى تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأى أن يهب الانسان متاعه رجلا مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟ أو أن يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

انكم ما جئتم هنا لتحمونا من أعدائنا بل لتحتموا بنا من أعدائكم ، لأنكم انما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحفَ المجريين عليكم وعدوانهم على أرضكم

هذه هى الحقيقة التى لا ريب فيها ، فان كنت تريد بما قلته أن تعلمنى ما ألفته لذلك الرجل الذى اتفقنا على خداعه وختله فانى أحفظ كثيراً من أمثال هذه الرقى والتعاويذ ، فلا حاجة بى الى سماعها منك ، فلنعمل فى المسألة معاً متكاشفين متصارحين ، ولتعلم ان الذى أسعى لاعطائك اياه وتسليمك زمامه انما هو

الوطن بأجمعه ، أرضه وسماؤه ، وبره وبحره ، وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذى أنقاضا كه فى سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لايزيد عن كرسى من الخشب مموه بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو فى البلد المغلوب على أمره المسلوب حريته واستقلاله سجن ضيق لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ فيه ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين وآخذ منك ذلك الكرسى الحقير ، وأنا عالمة قيمة ماأعطى وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب انك تخدعنى أو تدهننى فى هذه الصفقة ، وأقسم لك بشرفى وشرف « بيزنطية » لوكان هذا الوطن وطنى وكانت تربته مدفن آبائى وأجدادى لما بعتك ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الارض وتيجانها

فاصفر الجاسوس واربد وجهه وقال : اننا ما اجتمعنا هنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك هذا العهد السلطانى بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من إخلاء التخوم من حراسها وسهل لجيشنا سبيل اجتيازها ، فان قبل فذاك ، أولا ، عدت بعد ثلاثة أيام الى مركز الجيش ورفعت الأمر الى سلطانى وقائدى ، وعادت الحرب الى شأنها الأول أو أشد ولا يعلم الا الله متى تنتهى وماذا تكون عاقبتها

فتناولت منه العهد وقالت له سنلتقي بعد ليلتين أو ثلاث ، وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق

فقام الى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض الاناشيد الدينية ، وما هي الا لحظة حتى عادت الوصيفة وكان الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف

﴿ الامل ﴾

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء

إنهم يُذرِفون دموعهم وهم عالمون انهم يسكبونها فى أرض قاحلة جدباء لاتنبت لهم راحة ولا سعادة ، ويسهرون لياليهم وهم يعتقدون أن ظلماتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد ، ويطرقون برؤوسهم فى خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهى أيام شقائهم أو تبتدىء أيام سعادتهم ، فحياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا متى يرحلون عن هذا الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها ، فان كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقى فى هذه الارض فلنذرفها على والد ثكل ولده فى ريعان شبابه أحب ما كان اليه ، وألصق

ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له فى رجعته ، ولا رجاء فى لقائه ، أو عاشق علم فى ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره ، وانها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناء لا رجعة لها منه أبد الدهر ، فوقف أمامها يودعها وداعاً لا يقول لها فيه : إلى الغد أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً ، بل يصمت صمتاً تذوب فيه كبده القريحة ذوبا ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجه وهو يعلم أن لا نصيب له فى العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة ، أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدلين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود اليه فى سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط اليها فى أرضها ، فهى تبكيه ولا يشعر ببكائها ، وتهتف باسمه ليلها ونهارها ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها

كذلك كان شأن ميلتزا فانها أحبت سيدها حب العابد آلهة المعبود ، وافتتنت به افتتاناً كانت تحسبه فى مبدأ أمرها عاطفة ولاء وإخلاص فاذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهى الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطمعها الى ذلك الكوكب النائى فى سمائه ، أو أن تمت اليه بسبب

من تلك الاسباب التى يمت بها الناس بعضهم الى بعض ، فكانت وهى أقرب الناس اليه أبعد الناس عنه وأنا آهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز فى موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم ، والسيد من المسود ، والصنيعة من صاحب النعمة

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلا خوفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن تعثر يوماً من الايام بتلك اللوعة المتأججة فى صدرها فيتهمها فى عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى فى عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر ، وتهرب من الخلوة بجهدها حتى لا يرتاب فى اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذهول عقلها ولجلجة لسانها ، أى انها كانت محرومة كل شىء حتى تلك اللذة الضئيلة التى يتمتع بها أقل المحبين حظاً ، وأخيبهم فى الحب سهما ، وهى الافضاء بمكنون صدرها الى ذلك الذى تحبه وتعبده ، وكان كل مايعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ، وكان يجد فى بلاهتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقائه وصدق لسانها واخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه ، ومتكأ يتكىء عليه فى ساعات أعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، فكانت إذا جن

الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست فى فراشها تساهر الكوكب وتطالعه ، وتزفر زفرات حرى موجعة وهى لاتعلم ماذا تشكو ولم تبكى ، لانها لاتعرف لها غرضاً ولا غاية ، ولو استطاعت أن تفهم من شؤون نفسها مايفهم الناس من شؤون نفوسهم لعرفت انها أنما تبكى على أن ليس لها فى الحياة كما للناس أمل ولا رجاء

هذا هو الحب الطاهر البرىء الذى لاتشوبه الاغراض والغايات ، ولا تحيط به الريب والشكوك ، والذى طالما نشده الناس فى كل مكان فاضلوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأى سعادة فى الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصة تحبها وتعبدها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالخمر ، والاريج بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك الفتاة بهذه النفس المخلصة المتعبدة التى تحزن لحزنه ، وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه وترضى لرضاه ، ولا تعرف لها وجوداً منفصلا عن وجوده ، ولا حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلة المرآة من الوجه ، تقطب إذا قطب ، وتبتسم اذا ابتسم ، وتطير فرحاً وسروراً بانتصاراته ، وتذوب كمداً وحزناً لآلامه وأحزانه ، وتحب أباه حبه إياه وتنفر من زوج أبيه نفوره منها ، وهو وان لم يكن يفاتحها

فى شأن من شؤونه الخاصة ولا يفضى اليها بسر من أسرار بيته وعلائق بعض أفراده ببعض ، إلاانها كانت تشعر أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد بل على الامة بأسرها وكان شعورها هذا يقودها الى مراقبتها وملاحقتها فى كل مكان وترصد حركاتها وسكناتها علها تهجم منها على ذلك السر الهائل الذى تتوهمه توهماً ولا تعرفه ، فتكشفه وتمزق عنه الستار ، حتى واتاها القدر يوماً من الأيام فعثرت به

﴿ السر ﴾

رجع قسطنطين من بعض غزواته فدخل على مليتزا فرآها مطرقة واجمة فلم يلق لها بالا وخلع رداءه ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعة التى كان يسمعها من حين الى حين تصدح فى قصر أبيه فطرب لها طرباً شديداً ، وافتر ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر الى مليتزا وهى جالسة تحت قدميه فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة كان نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها ، فعجب لامرها وقال لها : ألا تطربين معى يامليتزا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟ فرفعت رأسها اليه وكأن دمعة لامعة تترقرق فى عينيها

وقالت له لا يا مولاى ، فدهش لقولها وقال ولم ؟ قالت لانى لا أحبها ، قال ولم لا تحبينها ؟ قالت لانى لا أحب صاحبها ، قال وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذى يختلف الى الأميرة من حين الى حين ليسمعها أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نوالها ؟ قالت انه ليس بسائل يا سيدى ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم ابراهيم بك أحد قواد الجيش التركى ، فانتفض قسطنطين مذعوراً واستوى فى مكانه جالساً وقال ماذا تقولين ؟ قالت انى كنت مخدوعة به قبل اليوم حتى رأيته ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلى صلاة المسلمين مطرقاً خاشعاً مستقبلا قبلتهم فارتبت فى أمره ثم دنوت منه وأنعمت النظر فى وجهه من خلال بعض الاغصان من حيث لا يشعر بمكانى فعرفته وذكرت انه ذلك البطل العظيم الذى كنت أراه فى معسكر الجيش التركى لا يزال مرافقاً للقائد الكبير يسير فى ركابه حيث سار ويتنقل معه فى غدواته وروحاته ، وان غابت عنى معرفته فلن تغيب عنى معرفة تلك الشجة الهلالية الواضحة فى جبينه وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التى يغنيها الآن . .

وهنا توقفت عن الكلام واضطربت وكأنّ كلمة حائرة تختلج

بين شفتيها ، فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؟ فأطرقت هنيهة ثم رفعت رأسها فاذا دمعة تتحدر على خدها واستمرت بها حديثها تقول : نعم انى أعرفه من تلك النغمات التى كان يدعونى الى الرقص عليها فى خيمته فى المعسكر وهو جالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه يغنيهم ويطربهم فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادى يتمزق لوعة وأسًى لا أهِنُ ولا أفترُ ولا أسنعفى ولا أعتذر مخافة أن يرى سيدى الجندى ذلك منى فيعاقبنى ، فقد كان يحاسبنى على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم والاحتشام محاسبة القاضى المجرمين على الذنوب والآثام ، فاعذرنى يا سيدى ان بكيت لحظة بين يديك ، فانى وان كنت ولدت فى مهد الشقاء ونشأت فى حجر البؤوس والآلام فقد كانت تلك الأيام التى قضيتها فى ذلك المعسكر أو فى بؤرة السقوط والعار أشقى أيامى وأعظمها شدة وبؤساً ، لا أذكرها الا بكيت لذكراها ، وأسبلت ردائى على وجهى حياء منها وخجلا

على انى أحمد الله اليك فقد بسطت الىَّ يد رحمتك واحسانك واستنقذتنى من مخالب ذلك الشقاء أيأس ما كنت من الخلاص منه ، أحسن الله اليك ، وهون عليك همومك وآلامك

وكانت تتكلم وقسطنطين لاهٍ عنها بقصة ذلك الجاسوس لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ثم التفت اليها وقال لها اذن هو جاسوس متنكر ، قالت ذلك ما أعتقده يا مولاى ولا أرتاب فيه، فظل يدور فى الغرفة دورة الهائم المختبل لا يهدأ ولا يتريث وظل على ذلك ساعة ثم انفضّ بغتةً على ردائه فاختطفه وخرج من الغرفة مسرعا فادركته ميلتزا وتعلقت باطراف ثوبه وقالت له أين تريد يا مولاى ؟ قال أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره الى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت ان القيثارة قد انقطع صوتها ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله فدعه وشأنه : قال لا بد لى من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود الى هذا المكان مرة أخرى ، قالت أضرع اليك يا سيدى أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتمم لك بقية حديثى ، فجمد فى مكانه وقال لها ماذا عندك بعد ذلك ؟ قالت ان كنت تريد أن ترفع أمر الرجل الى أبيك ليعرف حقيقته فاعلم انه يعرفه حق المعرفة بل هو أعلم به منى ومنك ، فثار ثائره وصرخ فى وجهها قائلا ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرد سيفه من غمده وأهوى به عليها ليقتلها، فاستخذت له ومدت اليه عنقها وقالت اضرب يا مولاى فدمى حلال لك ، وان شئت فاستمع منى كلمة واحدة قبل أن تفعل، فان

شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ، فجمد السيف فى يده وظل شاخصاً اليها ينتظر كلمتها فقالت : نعم قد تم الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الجاسوس التركى على أن يخلى أبوك تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة لتتمكن الجيوش التركية من اجتيازها ، فان فعل أصبح فى الغد سيد البلقان ومليكها : قال ومن أين لك علم ذلك ؟ قالت قد سمعت الحديث الذى دار بينهم فى هذا الشأن ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرءونها ويتداولونها وما أحسبها الا وثيقة العهد الذى تعاهدوا عليه ، فان كنت لا تزال فى ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء وضع أذنك على خصاص الباب المغلق بينهما كما صنعت أنا منذ ساعة تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك

فشعر قسطنطين ان الارض الفضاء تدور به ، وأن الشمس قد لبست قناعها الاسود فما يرى شعاعاً من أشعتها ، وان فرائصه ترتعد وتصطك فما تكاد تحمله ، فتراجع الى جدار قائم وراءه فأسند ظهره اليه حتى هدأ قليلا ثم مشى يتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التى وصفتها مليتزا ومشى الى الباب الموصد بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئاً حتى ظن أن الغرفة خالية ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمع للاصغاء فاذا هو يقول لزوجته بصوت

خافت متهدج : هل سافر الرجل ؟ قالت نعم ياسيدى وما أحسب الا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة فان جواده أفره الجياد وأسرعها ، فصمت ولم يقل شيئاً فدنت منه وقالت له بنغمة حلوة ساحرة ، ماهـذا الاصفرار الذى يكسو وجهك ياميشيل ؟ وما هذه الـكآبة السوداء التى تتدجّى فى عينيك ؟ فهل أنت نادم على ما كان ؟ قال لا ولكننى أخشى الفشل ، قالت لاأعرف للفشل باباً يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش وصاحب الامر والنهى فيـه ، فان كان كل مايغنيك من الأمر الا تظهر يدك فى هذا العمل فقم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب الى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الرابية الأولى وارقبه حتى تأتى ساعة انصرافه واستبداله فاظهر له كأنك الحارس الذى يخلفه فى مكانه واهتف له بكلمة السر التى بثثتها الليلة بين جنودك ، وحراس المداولة كثير لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً ، فاذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لايعـلم من أمرك شيئاً ، حتى اذا رأيت الجيش التركى مقبلا فى منتصف الليل وعلمتَ أنه قد أشرف على التخوم وملكَ رأس الطريق الى « فيدين » عدت أدراجك الى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد فى ذهابك أو ايابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة

مفاجأة لانملك معها للأمر دفعاً ولا رداً

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً عند سماع هذه الكلمات وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه لولا أنه طمع فى أن يسمع من أبيه كلمة شرف واباء تهدم صرح تلك الخيانة الذى تبنيه يد زوجته ، فأرهف أذنيه ليسمع جوابه ، فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط بعد كلام كثير لم نفهمه : نعم هـذا هو الرأى السديد ، ولقد أمنت الآن كل شىء : فأتينى بلباس الحارس فقد عزمت ولا مرد لعزمى ، فتهافتت على عنقه وقبلته قبلة طويلة رن صوتها فى أرجاء الغرفة ثم ذهبت لشأنها

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه واكفهر وجهه وتداركت ضربات قلبه وحاول أن يصيح فخانه صوته فسقط مغشياً عليه ولكن بين ذراعى مليتزا لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لايشعر بمكانها ، حتى اذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته الى غرفتها

﴿ الجريمة ﴾

جثم الليل فى مجثمه ونشر أجنحته السوداء على الكون باجمعه فهجع تحت ظلالها الاحياء جميعاً من بشر وحيوان . ولم يبق ساهراً

وسط هذا السكون المخيم الا عينا القائد برانكومير فى شعب تراجان يديرهما ههنا وههنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ، ويقلبها أحيانا فى صفحة السماء فيرى عيون النجوم محدقة فيه فيخيل اليه انها عيون الله ناظرة اليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحاً يصيح به من جوانب الملأ الأعلى « اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن واكتم عملك عن عيون الناس جميعاً فانى ناظر اليك ومسجل عليك هذه الخيانة العظمى التى تجنيها على وطنك وقومك » فيتضاءل ويتصاغر ويمر بخاطره قول أمه له فى عهد طفولته فيما كانت تمليه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم (إن كواكب السماء ونجومها تشهد بين يدى الله على جميع جرائم البشر التى ليس لهـا شهود) ، ثم لا يلبث أن تسرى عن نفسه ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه ، وتاجه وصولجانه ، وعزه ومجـده ، ثم يلقى نظرة عامة على الجبال المحيطة به ، والسهول المنبسطة من حوله ، والأنهار المائجة بأشعة النجوم ولألائها ، فيقول . غداً تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتى وأهلها خـدمى وحشـمى ، يأتمرون بأمرى ، ويذعنون لقوتى وسلطانى ، وغداً يتلألأ التاج على جبين بازيليد فتصبح أسعد نساء العالم جمعاء وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل اليه كانه يرى

بازيليد ماثلة بين يديه تنظر اليه نظراتها الساحرة الفاتنة فيمد ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلا

انني لا أزال على العهد الذى عاهدتك عليه مذ فارقتك حتى الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مر لى بخاطر أن أحفل بشيء فى العالم سوى أن أنيلك البغية التى تبتغينها

أن القبلة التى وضعتها على شفتى منذ ساعة قد أثلجت صدرى وسكنت جميع مخاوفى ووساوسى ، فانا أقدم على الجريمة إقدام الهادىء المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر فى نتائجها ، بل لا أشعر انها جريمة يخفق لها قلبي خفقة الاسف والندم

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ولا بد لى من أن أبر بقسمى ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسى منك — وأنت الحياة التى لا حياة لى بدونها — لاستحييتك أن أحنث فى قسمى أو أن أخيس بعهدى

أقسمت لك أن أخون وطنى ، وهاءنذا أخونه كما أردت راضياً مستسلماً لا أندبه ولا أرثى له ، فرضاك هو الوطن كله ، بل هو الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله ، وليفن العالم بأسره ، فأنت لى كل شى فيهما

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة

فى شعب « تراجان » تحت القوس الرومانى بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للاحراق انذاراً للجيش بالعدو عند زحفه ، وكانت الهضبات المحيطة بتلك الرابية أو المبعثرة من حولها سوداء قاتمة تتراءى فى ظلمة الليل ووحشته فى صور وحوش مخيفة هائلة فاغرة أفواهها، أو مقعية على أذنابها ، أو متوثبة للهجوم ، فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع الى الاغماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين

وما كان الرجل جباناً ولا رعديداً ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله . ولكنها الجريمة تنتزع قلب المجرم من بين جنبيه وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى مالا يراه الناس ويخشى مالا يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين والصخور والاحجار بل يخاف جرائمه وآثامه

وإنه لكذلك اذ خيل اليه أن أحداها تتحرك من مكانها ، وتتحلحل تحلل الليث المتوثب ، فاستطير قلبه فرقا ورعباً ، وحاول أن يتهم نظره ويستريب به فلم يستطع ، لانه مالبث أن رأى فى ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر اليه بعينين متقدتين فصرخ صرخة الكلب الجبان الذى ينبح الشبح المقبل نحوه

لاجرأة واقداماً ، بل جبنا وفرقا ، وقال من هناك ؟ فانحدر الشبح اليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خشن أجش : لاترتع ياأبت فأنا ولدك قسطنطين ، فوثب من مكانه وثبة الملسوع وقال له بصوت مهدج مختنق : ماالذى جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنبأك انى فى هذا المكان ؟ قال له وأنت ما الذى جاء بك الى هنا ياأبت؟ وماذا تريد أن تفعل ؟ إننى أسألك عن مثل ماتسألنى عنه ، فأسقط فى يده وطار طائر عقله وأجس بالخطر المقبل إلا أنه تجلد واستمسك وقال بلهجة الآمر المسيطر : وماسؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجرىء ؟ وما شأنك بى وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حصنك فى هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ قال لم أستأذن فى ذلك أحداً غير واجبى ، انى أعلم كل شىء ياأبت ، واعلم انك ماجئت الى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة يرتكبها انسان فى العالم ، فصاح برانكومير وهو يتميز غيظاً وحنقاً كذبت أيها الغلام الوقح ، واجترأت على مالم يجترىء عليه أحد من قبلك ، عد الآن إلى حصنك ، ولا تبق بعد صدور أمرى اليك لحظة واحدة ، فان حاولتنى فى ذلك فأنت أعلم بما يكون ، إنك لاتفهم شيئاً من أسرارى وخويصات نفسى ، وليس لك أن تسألنى عنها لانك جندى والجندى لايسأل قائده بل يأتمر

بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد الى مخفرك وتول حراسته بنفسك ولا تأذن لجفنك بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك غداً فى هذا الشأن حديثاً طويلا تعلم منه كل شىء

فتضعضع قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة وجثا على ركبتيه بين يديه وقال له : عفواً يا أبت فقد أخطأت فى سوء ظنى بك فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التى قلتها للاميرة منذ حين فى تلك الخلوة الرهيبة إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها وملاينتها ، أو الهزء والسخرية بها حتى إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك محوت بظهر يدك عن فمك تلك القبلة الاثيمة التى ختمت بها ذلك العهد الاثيم ، ثم قلت لها فى نفسك انى قد عاهدت الله أيتها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطنى ووفياً له فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ولا بيمين غير تلك اليمين ، ثم خفت أن تكون قد استرابت بك أو مرت بخاطرها خلجة شك فى أمرك فأخذت للامر حيطتها من طريق غير طريقك فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركى مقبلا اشعلت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فى ما يكيدون لك ولقومك

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم انه كذلك بلا شك ولا ريب فأشعل النار الآن ودعها تسطع فى هذا الفضاء الواسع ، وتبدد بلألائها هـذه الظلمات المتكاثفة ، فانى اشعر بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه ، أنظر يا أبت واخترق بنظرك هـذا الفضاء الشاسع ألا ترى تحت خط الافق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيل إلى انهـا أعلام الجيوش التركية تخفق فى أجوائها ، وربما لا تمضى ساعـة أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت الى هنا

أسرع باشعال النار ، أو عد أنت الى قصرك وخذ لنفسك راحتها فيه ودعنى أتولى عنك أشعالها ، فالخطر موشك أن يقع ما من ذلك بد

مالى أراك جامداً يا أبت ؛ وما هذاالذهول الذى يتولاك ؟ أشـل النار أو تنح عن طريق لاشعلها ، أشعلها فالوقت أضيق من التأمل والتفكير

فرفع برانكومير رأسه ونظر الى ولده نظرة جامدة وقال له . اذن انت تتهمنى يا قسطنطين وترتاب بى ، ما أشقانى وأسوأ حظى ، ولدى وفلذة كبدى ووارث اسمى ولقبى يتهمنى ويتجسس على ويقف وراء الابواب ينظر من خصاصها ليسمع

مايدور بينى وبين زوجى فى خلوتى ! فياللعار ويا للشقاء ، أيها الولد العاق المسكين ! إذهب لشأنك فانى أريد أن أبقى هنا الليلة وحدى ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيطاع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره ، إننى سأبقى هنا وحدى . وسأشعل النار بنفسى عندما أريد اشعالها ، فلا حاجة بى الى مشورتك ومعونتك ، عد ادراجك الى حصنك ولا تضف إلى جريمة التجسس على أبيك جريمة معاندته ومخالفة أمره ، واعلم أنك الآن جندى أمام قائده ، لا ولد بين يدى أبيه

فأنّ قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمتاه لى ولك ياأبت ، إن الأمر صحيح لاريب فيه والجريمة على وشك الوقوع

ثم صمت صمتاً طويلا لاتطرف له فيه عين ولا تنبعث له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبى ! إننى سأبقى هنا

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ماأرانى الآن الا أمام عدو لدود ، لا ولد بار مطيع ، قال لا أبت بل أمام ولد بار مطيع ، ولولا ذلك ماجشمت نفسى مشقة المجىء اليك فى هذه الساعة من الليل ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ، إننى لم

أفعل ذلك من أجل نفسى بل من أجلك ومن أجل شرفك ، إننى أحبك كما أحب وطنى ، وما على وجه الأرض شىء أحب إلى منكما ، وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلا ، أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيما ، فاذا ضاع وطنى وكان ضياعه على يدك أنت فقدتُ فى ساعة واحدة جميع ماأحب فى هذه الحياة ، فارحم ولدك المسكين الذى لا يزال يضمر لك فى قلبه حتى الساعة ذلك الحب القديم الذى تعرفه واستبق له تلك السعادة التى لم يبق له فى الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلا عن طريقى وائذن لى أن أصل الى هذه الرابية لاشعل نارها فيراها حراس الروابي جميعاً فيشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزفت الساعة ولم يبق سبيل للاناة والتفكير

ثم اندفع الى مكان الرابية مسرعاً فاعترضه أبوه ووقف فى وجهه وقفة الصخرة العاتية فى وجه الريح العاصف وقال له : لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ماتريد الموت الزؤام

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر ياأبت فان فى هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ، ويجازى الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بناج من عقابه ، ولا مفلت من جزائه ، لقد حدثتنى نفسى فى تلك

الساعة الهائلة التى سمعتك فيها تؤامر على وطنك وأمتك بأقطع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك الى الملك أنت وزوجك وأكشف له دخيلة أمركما فلم أفعل لانى ضننت بك على الموت الدنىء الذى يموته الخائنون المجرمون أمثالك ، وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذى فى علوه مناط السماك الاعلى أن يصبح مهاناً مذالا تدوسه الاقدام ، وتطؤه النعال . وكرهت أن يمر السابلة من رعاع الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كانما يبصقون على قبر الشيطان ، وربما نبشوا عن جثتك تشفياً منك وانتقاماً فأخرجوها من قبرها وأسلموها الى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق اشلاءها وتبعثر عظامها

أشفقت عليك من كل هذا وأشفقت على نفسى أن يراني الناس فى طريق فيشيروا إلى بأصابعهم ويقولوا هذا هو الوالد السافل الدنىء الذى وشى بأبيه وأورده مورد التهلكة ، فبئس الولد لبئس الوالد ، ولا يلد الخونة المجرمون غير الادنياء الساقطين ، فنهضت نفسى وملكت عليها زمامها وقلبى يذوب حزناً ولوعة وقلت لعلنى أستطيع أن أتدارك الامر من طريق غير تلك الطريق وأن أتمكن فى آن واحد من انقاذ أبي وإنقاذ وطنى من حيث

لا أخسر واحداً منهما فى سبيل الآخر ، فجئت وقلبى أملا ورجاء

أما الآن وقد يئست من كل شىء فانى أكاد أشعر بالندم على ضياع تلك الفرصة التى ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها ولم انتفع بها ، وكأن صوتاً خفياً يهتف بي من أعماق قلبى : إنك قد اشفقت على نفسك مرة وعلى أبيك أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تشفق على وطنك وقومك

فأسألك مرة أخرى يا سيدى وربما كانت هى المرة الاخيرة أن تتنحى عن طريقى فاننى قد عزمت عزماً لا مرد له أن أقتحم هذه الرابية لاضرم نارها رضيت أم أبيت،سقطت على السماء على الارض ، أم بقيت فى مكانها

فأطرق برانكومير لحظة ذهبت به فيها الهموم والافكار كل مذهب. ثم رفع رأسه فاذا دمعة كبيرة تترقرق فى عينيه ونظر الى ولده نظرة عتب وتأنيب وقال له : نعم يا بنى انك قد أخطأت خطأ عظيما إذ أضعت الفرصة العظيمة التى لاحت لك وقد كان جديراً بك ان تفترصها ولا تسرحها ، وان تلقى فى عنق أبيك فى تلك الساعة التى رابك فيها من أمره ما رابك غلا ثقيلا تقوده به الى حضرة الملك متهماً اياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوبا على باب المدينة والجماهير من

حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله ويرجمونه بالحجارة على مرآى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه ، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم فى عملهم

نعم انها فرصة ثمينة جداً قد أضعتها بترددك وتحيرك ، وقد كان جديراً بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان فى مكانك ، فقد عودتُ نفسى أنى اذا عزمت على أمر لاأتردد فيه ولا أتريّث ، وقد عزمت الآن على أن لاأشعل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك باشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة

فوقف قسطنطين حائراً ملتاعاً يترجح بين اللهف على وطنه الضائع ، والاشفاق على أبيه المسكين ، لايستطيع أن يخون وطنه الذى نبت فى تربته ، وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يَعُق أباه الذى أبرزه الى الوجود ووهبه نعمة الحياة التى ينعم بها ، فأسند رأسه الى صخرة كانت بجانبه خائراً متضعضعاً تتوارد فى رأسه الخواطر والأفكار ، يصارع بعضها بعضاً ، ويشتد بعضها فى أثر بعض ، حتى بلغ منه الأعياء مبلغه فنظر الى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزناً ويأساً وقال

أيرضيك ياميشيل برانكومير ، يابطل البلقان وحاميها ، وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نسائها ، أن يملك العدو

علينا هـذه البلاد العزيزة الـكريمة فيقتل أبناءها ، ويستحل حرماتها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويخرس فيهـا كل صوت غـير صوت الآذان على ذرى المنائر ؟ قال نعم يرضينى ذلك لأنى أحسنت اليهـا فـكفرت بنعمتى وجازتنى شر الجزاء على صنيعى ، قال إن لم تفعل ذلك من أجلهـا فافعـله من أجل ربك ، قال أى رب تريد ، إننى لا أفعل شيئاً من أجله فهو ممالئ مداج لا يحب الا قسوسه وكهانه ، ولا يرى رءوساً تصلح للتيجان غير رءوسهم الصغيرة الصلعاء ، ولـكننى سأنتزع بالرغم منه ذلك التاج من ذلك الرأس الذى توجه به وأضعه على رأسى ، قال : ولـكنك تعلم ياأبت أن التاج الذى يتناوله متناوله من يد عدوه ليس بتاج شريف ، قال ولـكنه تاج على كل حال ، قال ألا تخاف أن يثقل يوماً على رأسك فيهبط الى عنقك ويستحيل الى طوق حديدى يخنقك ويقضى عليـك ؟ قال إنك تهينني ياقسطنطين وتهددنى ، ولقد بلغت بوقاحتـك الغاية التى لاغاية وراءها ، فتجمل قليـلا ولا تنس انك إنما تخاطب أباك ، قال : عفواً ياأبت وغفراً فلقد بلغ بى اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ماأقول

ثم دنا منـه وأمسك بيـده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :

عد الى نفسك لحظة واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف ، واذكر تلك الايام المجيدة التى أبليت فيها فى الدفاع عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ فى صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية ، وتلك الوقائع الحربيـة الهائلة التى كنت تستقبل فيهـا الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات النـدى ، والنبت لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى وفتياتها فى كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك ويرقصن بين يديك ويرتشـفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك وينثرن الأزهار تحت قدميك ويناديننك باسم المخلص العظيم وخليفة المسيح فى الارض

أذكر تلك الاعلام الوطنية التى تخفق على أبواب المـدينة وأسوارها وترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ، وترامیها على قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلها ولثمها ، واخش ان مررت بها بعـد اليوم أن تشيح بوجهها عنك احتقاراً وازدراء ، وتضم أطرافها الى نفسها ترفعاً وإباء ، حتى لا تامس جسمك ، ولاتخفق فوق رأسك

لا تبع أمتك يا أبت بعرض تافه من أعراض الحياة فالتاج

الذى يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ، انما هو قلنسوة الاعدام

كيف يهنؤك ذلك الملكُ وأنت ترى أمتك المسكينة راسفة فى قيود الذل والاستعباد تبكى وتستصرخ ولا منجد لها ولا معين ، وتئن فى يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها ، أو يصغى الى شكاتها ؟

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاء فى قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته الى الذبح ، فان خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لا تستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وانقاذهم ، لانك قد بعتهم ونفضت يدك منهم فلا سبيل لك اليهم بعد ذلك

أذكر يا أبت تلك الأيام التى لقى فيها هذا الشعب المسكين على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب فى الأرض على يد فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء فى أوطاننا ، أذلاء فى ديارنا ، نمشى فيها مشية الخائف المذكور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتنكر لا نعلم أيسقط الشقاء علينا من علياء السماء ، أم ينبعث الينا من أعماق الأرض ، وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود اليه ، أو ليرد المورد الذى لا رجعة له منه أبد الدهر

أذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا حتى زروعنا وضروعنا ، ومياه أنهارنا ، وأشعة شموسنا ، فاصبحنا ولا شأن لنا فى وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها من الشأن فيها ، ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا ، وكل سكنة من سكناتنا ، حتى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا ، وفلتات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنا ، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة ، والانة والزفرة ، والقومة والقعدة ، ثم يقضون فينا بما شاءوا من أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالى إلا عن مصلوب تهفو به الرياح السافيات ، أو طريح مرتهن فى أعماق السجون

أذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها بحرمانه من ذلك الذى يهتف باسمه ، وكلمة الدين اثماً عظيما يذهب بصاحبه الى أحد القبرين ، اما المنشور ، واما المحفور

أذكر الدموع التى كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن المذبوحين فوق حجورهن ، والصيحات التى كانت تصيحها الزوجات والاخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهن واخوتهن ، والزفرات التى كان يصعدها اليتامى الثاكلون على حافات القبور حنيناً الى آبائهم وأمهاتهم الهالكين

أذكر ذلك كله ولا تنسه ، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف

نفسك ، لأنك أنت الذى قصصته علينا ومثلته لأعيننا وقلوبنا ، وأريتنا من ويلاته ومصائبه مالم نره ، ولطالما كنت تبكى عند ذكراه بكاء الطفل الثاكل أمه فنبكى لبكائك وننشج لنشيجك

ألا تسمع هذه الأصوات المخيفة التى تحملها الينا الرياح من ذلك الجانب الغربىّ ؟ انها أصوات الموتي من جنودك وأبطالك يضجون فى قبورهم صائحين : واويلتاه ، هاهى السماء توشك أن تنقض على الأرض ، وهاهى أقدام العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بنعالها قبورنا ، وتزعجنا من مراقدنا ، وهاهو قائدنا المحبوب برانكومير العظيم الذى سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا فى سبيل ظفره وانتصاره يساوم عدونا فى وطننا ويحاول أن يبيعه نساءنا واولادنا الذين تركناهم أمانة فى يده ، ففى سبيل الله ماسفكنا ، وفى ذمة القدر مابذلنا

ألا تسمع هذه الهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ انها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين يدى ربهم يقولون له ، حتى متى يسع حلمك وأناتك هذا الخائن الغادر الذى يبيع أمة من أمم المسيح الى أعدائها وأعداء دينها ويسلم اليهم أرواحنا وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل واضربه الضربة التى تجعله عبرة للخائنين ، ومثلا فى الغادرين ،

الىّ أيتها الذكريات القديمةُ والانتصارات العظيمة والأيام الغرُّ المحجَّلة المكتوبة بمداد الذهب فى صفات التاريخ ، مدى الىّ يد مساعدتك ، وأعينينى على ذلك الرجل البائس المسكين ، وتمثلى أمام عينيه لتذكريه بنفسه وتاريخك ، عله يحمر خجلا عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهبة من خيال الجريمة التى يريد ارتكابها

الى أيتها الفضائل الانسانية والكمالات العالية من شرف وعزة ، وترفع واباء ، وأمانة واخلاص ، تعالين الىّ جميعاً واجثين معى بين يديه ، واضرعن اليه أن ينصفكن ، ويعدل فى أمركن ، ولا يقضى للرذيلة عليكن ، وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونفضت يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصراً ولا معيناً

ياأطفال البلقان وصغاره الناشئين من فتية وفتيات ، اقبلوا اليه جميعاً : واجتمعوا من حوله ، وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ماتستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشؤونكم تحت قدميه ، وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحنانا علينا ، لاتكلنا الى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا فى أيديهم يسومونا الخسف ويذيقوننا ألوان العذاب ، فان أبيت الا أن تفعل ، فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا

فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائبة ماتهدأ ولا ترقأ ، وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة الماثلة فى مهاب الرياح الاربع ويزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت فى نفسه تلك المعركة الهائلة التى تقوم فى كل نفس شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأول فى وجه قسطنطين العبوس المكتئب ، فيرتعد ويضطرب ، وتتراآى له الثانية فى وجه بازيليد الضاحك المشرق ، فيخور ويتضعضع ، لايستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يصل إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفلت من سلطان شهوته ، لأنه سلطان قاهر جبار لايفلت منه قوى ولا ضعيف فوضع احدى يديه على عينيه ومد الاخرى أمامه كأنما يطارد بها أشباحاً مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته : اصمت ياقسطنطين ، اصمت ياولدى ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه ، والدهر وتصرفاته ، وويلى من الشقاء المكتوب ، والبلاء الحتم ، من لى بيد قوية تنقذنى من هذا الشقاء المحيط بى ، فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحد أجدر بالرحمة والشفقة منى ، إلعنوني جميعاً يا أولادى وأبناء وطنى ، وانتقموا منى بأفظع أنواع الانتقام ، فانى خائن لئيم

لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ، ثم صمت صمتاً عميقاً لا ينبس فيه ولا يتحرك وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول تخيل اليه أنه يرى شبحاً يتقدم نحوه فمد يده اليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ، ألا تستطيعين أن تحلينى من ذلك القسم الذى أقسمته الك ، فقد ضعف كاهلى عن احتماله واحتمال أثقاله ، لاأريد ملكاً ولا تاجاً ، ولا عرشاً ولا صولجانا ، بل لاأريد أن أبقى على ظهر الأرض يوما واحداً ، الموت الموت ! من لى به فى هذه الساعة فأنجو من همومى وآلامى

فتهلل وجه قسطنطين غبطة وسروراً ووقع فى نفسه ان الرجل قد تلوم واستخذى وبدأ يستقطع ذنبه ويستهوله ، فترامى على عنقه واحتضنه اليه وظل يقول بنغمة الفارح المغتبط : أحمدك اللهم قد أنقذت لى أبى ، فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يسمع فيها الا تردد أنفاسهما ونشيج بكائهما ، ثم افترقا بغتة واشرأبا بأعناقهما حينما سمعا فى لحظة واحدة حسيس جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان ما سمعاه فى هذه المرة حقيقة لا وهما ، فارتجلا فى وقت واحد حركتين مختلفتين ، اذ وثب قسطنطين الى الرايية وثبة عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبة أعظم منها فاعترض سبيله وصرخ فى وجهه : قف مكانك ، لا تتقدم خطوة واحدة ، فأصاب

قسطنطين مثل الجنون وقال له تنحعن طريقى أيها المجرم الأثيم فقد فرغ صبرى ، قال انك لاتستطيع أن تمر الا على جثتى ، فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت به الافكار مذاهبها وقال له : أى كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقى ، وأى قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريقى فان نفسى تحدثنى بأفظع ماتحدث به نفس صاحبها فى هذا العالم ، قال إنك لاتستطيع أن تقتل أباك ، قال أستطيع أن أفعل كل شئ فى سبيل وطنى ، إننى وقفت سيفى طول حياتى على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام كنتَ لوطنك وقومك ، أما الآن فانى أغمد ذلك السيف نفسه فى صدرك طيب النفس مثلوج الفؤاد لانى أعتقد أنى لاأغمده فى صدر أبى ، بل فى صدر خائن وطنى ، قال لاتنس أن لى يداً أقوى من يدك ، وسيفاً أمضى من سيفك ، قال انى لا أجهل ذلك ، ولكنك تقاتل فى سبيل الدناءة والخيانة ، وأقاتل فى سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من علياء سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا ، فجرد برانكومير سيفه وهجم على ولده هجمة قوية فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها ، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضى العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم

فنظر قسطنطين الى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لايعلم ماوراءها ، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته : رحمتك اللهم فانى لاأستطيع أن أفعل غير مافعلت ، ثم هجم على الرابية فاشعل نارها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها

وفى اليوم الثانى نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ :

(حاول العدو ليلة أمس تبييت جيوشنا وأخذها على غرة وكاد يظفر بذلك لولا أن انتبهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فابلت فى المعركة بلاء عظيما ووقفت العدوّ فى مكانه ساعة كاملة حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزام العدو إلى مواقعه الأولى ، ولكنّ المصاب العظيم الذى عم الجيش وشمل الأمة بأسرها هو موت قائدنا العظيم « ميشيل برانكومير » فقد وجد فى أثناء المعركة قتيلا بضربة سيف فى خاصرته بين صخور تراجان تحت القوس الرومانى ، وسيحتفل بتشييع جنازته غداً احتفالا عسكريا جليلا يليق بمقام شهيد الوطن وبطله العظيم

أما الذى خلفه فى قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الأمة والوطن « قسطنطين برانكومير »

﴿ الضمير ﴾

مضى الليل إلا قليلا وقسطنطين ساهر فى فراشه لا يغمض له جفن ، ولا يطمئن له جنب ، لان مصرع أبيه فى شعب تراجان لا يزال ماثلا أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة ، وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر إليه نظرات حادة ملتهبة ، وكأن جرحها الدامى بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم ، فثار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فمد يده الى ذلك الجرح الموهوم الماثل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد فى تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها وصبغ بلونه الأحمر القانى جميع ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتد فزعه وارتياعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل فوقع مغشياً عليه

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول

إننى على ثقة من نفسى ، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذى يساورنى ! وما هذه الصور المخيفة التى تتراءى لى فى يقظتى وأحلامى ! كان يجب على

أن أضرب لأنه مامن ذلك بد ففعلت ، فلم أرتاب فى عملى ! ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين ! ان الرجل لايخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذى قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح فى أوروبا . ألا يجوز للانسان أن يقتل الأفعى دفعاً لأذاها ، والوحش كسراً لشرته ، واللص اتقاء لضرره ! إننى لم أفعل غير ذلك ، فمالى أرى وجه السماء أحمر قانياً ليله ونهاره ، ومالى أجد مذاق الدم فى كل كأس أشربها من ماء أو خمر ، ومالى لا أستطيع النظر إلى يدى خوفاً ورعباً ! إننى لم أقتل أبى ، ولكننى أحييته ، لأنه ان كان يحيا اليوم فى قلوب الناس حياة العظمة والمجد وكان تمثاله آلهاً معبوداً يطيف به الشعب ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه وكان اسمه طغراء الأسماء الشريفة المسجلة فى التاريخ فانما ذلك بفضل الضربة التى ضربته إياها . ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته عيش الأدنياء الساقطين ، أو مات موت الخونة المجرمين

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عرقاً وقال بصوت ضعيف مختنق : نعم : ان ذلك كله صحيح لاريب فيه ولكننى قتلت أبى !

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه فرأى الجثة والمصرع والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الأصوات

التى تهتف به فى كل مكان « ياقاتل أبيه ، يا أكبر المجرمين ، ياعار البشرية وشنارها » فجن جنونه ، وثار ثائره ، وعادت له سيرته الأولى

ولم يزل هكذا ليله كله ، يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى نشر الفجر رايته البيضاء ، فى آفاق السماء فاستروح رائحة الأنس وشعر ببرد الراحة فآوى إلى مضجعه

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر لياليه مذ حدث ذلك الحادث العظيم

﴿ الأزهار ﴾

دخلت ملينزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالى الطويلة الليلاء وبيدها طاقة من الزهر تريد أن تقدمها اليه فرأته مضطجعاً على كرسيه مستغرقاً فى نومه وآثار الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه وفى صفحتى خده فرثت لحاله وجلست تحت قدميه ترقب يقظته رقبى المجوسى طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الازهار فانتعش وتحرك فى مكانه وفتح عينيه فرآها فابتسم وتهلل وقال ملينزا ! قالت نعم ياسيدى نعمتَ صباحاً ونعمتْ جميع أيامك بكورها وأصائلها . ثم مدت

يدها اليه بالطاقة وقالت له : قد اقتطفت لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتستروحها فتروح عن نفسك برياها همومها وأحزانها فتناول الطاقة منها واستنشقها وتنفس تنفسة طويلة ثم نظر اليها نظرة حلوة عذبة وقال لها أتعلمين ياماليتزا انني أستنشق في هذه الازهار التي تهديها الى أنفاسك الأريجة العطرة ، وان الذي ينعشني ويحييني ويرفه عني همومي وآلامي في هذه الطاقة انما هو أريجك لا أريج الازهار! فارتعدت ماليتزا لأول كلمة حب سمعتها من فمه وظل قلبها يخفق خفقاناً شديداً وملك الدهش عليها عقلها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد وظلت شاخصة اليه ببصرها ، فاستمر في حديثه يقول ، لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنياً شديداً حتى رأيتك ورأيت هذا الجمال المتلألئ في عينيك وشممت أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك فأحببت الحياة من أجلك ، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك ، وأقضي بقية أيام حياتي بجانبك . فشكراً لك ياصديقتي ، فأنت النجمة الوحيدة الباقية في سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها وكواكبها ، والشعاع المضيء الذي ينبعث الى أعماق سجني المظلم الحالك فيبدد ظلمته وينير جوانبه ويملأ قلبي أملا ورجاء ، والواحة المخصبة الخضراء

التى ألجأ اليها كلما قطعت مرحلة فى صحراء هذه الحياة المحرقة فأنام تحت نخيلها ، وأبترد ببرد مياهها ، قالت ليتنى أستطيع أن أكون عند ظنك بى ياسيدى ، بل ليتنى أستطيع أن أقاسمك هذه الهموم والأحزان التى تعالجها ، أو أحتملها عنك جميعها حتى لا أراك بين يدى إلا باسما متطلقاً فى جميع آنائك وساعتك ، انى أمتك الوضيعة المسكينة ياسيدى ، وليس لفتاة مثلى أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكننى أستطيع أن أضرع اليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك فأنت رجل فاضل شريف وقد قلت لى قبل اليوم إن الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته فى سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك فى قصورهم ، قال ومن أين لك انى رجل فاضل شريف ؟ قالت لو لم تكن كذلك لما أحببتك ، فابتسم قليلا وقال : إذن أنت تحبيننى ياماليتزا ، قالت نعم ياسيدى أكثر من كل شئ فى العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها فى قلبك لقلت لك إنها ما كانت تحبك فى حياتها أكثر مما أحبك اليوم ، فأطرق قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة فرفع رأسه وقال لها : حسبك ياماليتزا لا تذكرينى بأمى فما أحسبها الآن إلا ناقمة على فى قبرها ، تلعننى وتستعدى ربها على ، وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبنى

وينتصف لها منى ، واخجلتاه من نفسى يوم ألقاها فى تلك الدار ويجمع الموقف العظيم بينى وبينها ، فارتاعت مليتزا عند سماع هذه الكلمة وذهبت بها الظنون كل مذهب ، وظلت تنظر اليه نظراً غريباً حائراً وقد بدأت تفهم ذلك السر الهائل الذى أعياها أمره زمناً طويلا وتدرك السبب فى حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذى يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها مذ قتل أبوه حتى اليوم ، وكأنه قد ألمّ بما دار فى نفسها وتردد فى خاطرها فظل ناظراً اليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه ، حتى رآها تبتسم وتتهلل وتقول له : هون عليك الأمر ياسيدى ، ولا ترتب فى نفسك ولا فى ضميرك ، فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل شريف ، ولولا انك كذلك لما أحببتك ، فمد يده اليها فتناول يدها وقال لها أتعديننى يامليتزا أن تكتمى فى صدرك كل شىء ؟ قالت نعم أعدك وعداً لا أخيس به ، قال . وشىء آخر يامليتزا ، قالت وما هو ياسيدى ؟ فأدناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى نفسه وقال لها : أتقسمين لى على الحب حتى الموت ؟ قالت نعم ياسيدى اقسم لك ، قال بم تقسمين ؟ قالت بكل ما تسكن به نفسك ، قال ضعى يدك على هذا الخنجر

وأقسمى به ، قالت أفعل على شرط واحد ، قال وما هو ، قالت أن تُهدِيَنى إياه بعد ذلك ، قال وماذا تصنعين به ، قالت أقتل به نفسى يوم يحل بك مكروه ، فناولها إياه وهو يقول فى نفسه : ربما حل بي عما قريب ذلك المكروه الذى تتوقعين ، فوضعت يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والاخلاص له حتى الموت ، فتهلل قسطنطين فرحاً وسروراً ونزعه من خاصرته وعلقه فى منطقتها ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها فى ثغرها قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل مامر بها فى حياتها

﴿ حديث ﴾

جُرح الجندى « أورش » فى احدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته « أنّا » معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود فى الفيْنة بعد الفينه ، فزاره فى أحد الايام الجندى « لازار » وكان لايزال حارساً لقصر القائد برانكومير والخادمَ الأمين لارملته بازيليد وثقتها المؤتمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورش » حين رآه : هل من جديد اليومَ يالازار ؟ قال نعم قد فشل جيشنا فى الواقعة الاخيرة كما فشل فى الواقعة الماضية والوقائع التى تقدمتها ولا أعلم متى تنتهى هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس

عشراً ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ، أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لايحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد ، الذى تترقرق فيه الدماء والدموع ، ففى كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون

فقال أورش : لاريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم ، وأوسعهم علماً وتجربة ، وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها ، لم يفلت النصر من يده فى جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات فى الواقعة الأخيرة وسيفه مصلت فى يده ميتة البطل الشريف ، فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد ادباره

فقالت له ابنته « أنّا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه : لقد قلت لى يا أبت قبل اليوم ان قسطنطين قائد عظيم لايشق له غبار ، فما هذا الرأى الذى تراه فيه الآن ؟ قال نعم كان قائداً عظيما فى حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل بالرأى وحده وانقطع عنه ذلك الوحى الذى كان يرشده ويهديه ، فقد انتفض عليه أمره ، وأصبح حائراً مضطرباً لايدرى ماذا يفعل ولا كيف يصرّف وقائعه ومواقفه ، فقالت ان جيشنا لم ينكسر قط فى واقعة من تلك الوقائع التى تذكرونها كما تتوهمون ،

لانه لم يتخل عن مركزه ، ولم يسلم شِعباً واحداً من تلك الشعاب التى يحرسها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم فى جيوش أعدائنا أكثر منهم فى جيوشنا أضعافاً مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لايحول عنها ولا يتزحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو فى حصونه ومواقعه ، وترك الجبال التى تحميه من ورائه ، فكثر القتلى والجرحى فى جيشنا ، وهى خطة مخاطرة ومغامرة لايركبها إلا القائد اليائس أو المجنون ، ولا أعلم أى الرجلين هو :

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فانى أشعر كما يشعر كثير من الناس ان سحنته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيما ، وأصبح حزيناً منقبضاً لاتفارق الكآبة عينيه وجبينه ، ولم أر فى حياتى ثاكلا حزن على فقيده حزن هذا المسكين على أبيه ، قال لازار : ولقد حدثنى بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه فى بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلا مقبلا عليه

فقالت « أنّا » إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيما ، فقسطنطين

أفضل القواد وأشرفهم ، وماهو بجان ولا مجنون ، فنظر اليها الازار شزراً وقال بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابنى منه مذ ولى قيادة الجيش عفوه عن الاسرى الذين يقدمون اليه وإنزاله اياهم منزلة الاكرام والاعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون ، لاأعداء محاربون ، كما رابنى منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً حتى عن زوج أبيه التى تحبه حب الأم ولدها وفلذة كبدها ، فانه مذ هجر قصرها وعاش فى بيته الجديد الذى يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها الى زيارته حتى الساعة

فقالت « أنّا » : أكلُّ أفعال قسنطين قد أصبحت مريبة عندكم لاتحمل على محمل حسن حتى اكرامه للاسرى المساكين واشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال ليس هذا رأيى وحدى ، بل رأى أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم الى الموت الزؤام عمداً لسر خفى يضمره فى نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمناً طويلا ، فاحتدمت « أنّا » غيظاً وقالت : ان قسطنطين أشرف مما تظنون ، وهل ترون محالا أو غريباً أن يحزن المرء على أبيه بعد فقده ؟ ثم التفتت الى أبيها وقالت له بسذاجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هذا الجرح الذى

فى نفذك لا أذن الله بذلك ولا قدره لحزنت عليك حزناً يصغر بجانبه حزن قسطنطين على أبيه ، فابتسم أبوها وضمها الى صدره وقال لها اننا لانذهب فى أمره يابنية حيث ظننت ، ولا نتهمه بخيانة ولا ممالأة ولكنا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس الى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسالمة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعد لذلك العدة التى رآها ، واليأس هو الخديعة الكبرى التى يدسها الشيطان دائماً فى نفوس الأمم الضعيفة التى يريد قتلها والقضاء عليها

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً فى الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ووشايته فى صدورهم ، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويمالئ أعداءها عليها ، وان الرأى الصواب أن يرفعوا أمره الى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها الى غيره ثم انصرفوا

﴿ الدسيسة ﴾

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم فى غرفته اذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ، فانقبض صدره واشمأزت نفسه ، لانه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات

أبوه حتى اليوم ، فان لها بعد لأى فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه وأنشأت تعاتبه فى انقباضه عنها ووحشته منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم الذى كان يحبه ويحبها أنها لا تضمر له فى نفسها موجدة ولا حقداً ، ولا تحمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود المتين ، ثم قالت له : إننى برغم آلامى وأحزانى التى أعالجها مذ نزلت بى تلك النازلة العظمى حتى اليوم لم أر بداً من أن آتى اليك فى هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها . فالتفت اليها مدهشاً وقال : أى ساعة تريدين ؟ وما هى الشدة التى أنا فيها ؟ قالت كأنك لا تعلم أن الخطر الذى يحيط بك عظيم جداً لا أقبل لك باحتماله ، وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى ، ويبغضونك بغضا لا حد له ، ولا تحدثهم نفوسهم بشىء سوى تلمس الطريق إلى الوصول اليك ليقتلوك ، فاصفر وجهه وقال : وماذا ينقمون منى ؟ قالت ينقمون منك مخاطرتك بهم فى تلك المعارك الهائلة التى تكاد تفنيهم وتقضى عليهم ، وفشلك فى جميع الوقائع التى قمت بها مذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك الى سوء الظن بك ، فأصبحوا يعتقدون أنك خائن ممالئ للعدو ،

وانك ما سلكت هذه الخطة المعوجة فى حروبك إلا لتمكن الاعداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد ، فانتفض انتفاضة شديدة واربد وجهه ونزت فى رأسه سورة الغضب وقال : من ذا الذى يتهمنى بالخيانة ؟ قالت جنودك ورجالك ، قال : انهم كاذبون فيما يقولون ما فى ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين ، قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ، ولا غششتك فى النصيحة ، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل الى أبواب العاصمة ، وسيصل بريدك الساعة فينقل اليك هذا الخبر المحزن الأليم ، فصرخ صرخة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة ووثب الى مكانه تأثراً وهو يقول : آه يا وطنى العزيز وابتدر الباب يريد الخروج منه فأمسكت بيده واجتذبته اليها وقالت له مهلا أين تريد ؟ قال أدعو جنودى واجمع من تفرق منهم فى الثكنات والقلاع وأذهب بهم الى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى فالوطن فى خطر عظيم ، قالت لا تفعل فقد خرج الأمر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين فى ثكنات المدينة وأرباضها قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا يأتمرون بأمرك ، فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرف

منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود ! النفير النفير ، الأهبة الأهبة ، فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه : ليسقط الخائن : ليسقط المجرم ! فظل يشير اليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء اسماعهم وهم مستمرون فى ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد الى مكانه يائساً متضعضعاً ليس وراء ما به من الهم غاية

فدنت بازيليد منه وقالت له : قد عامت الآن أننى لم أكذبك القول ولم أخدعك ، وانى لم أقدم اليك مقدمى هذا فى هذه الساعة العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع نظره اليها مندهشاً وقال أنت ؟ قال نعم أنا ، فى الوقت الذى لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ، فاصغ لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستنجد بك على دفع هذا الخطر الداهم ، وإن شئت فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذى يضن به ضنه بحياته ولا يحفل بشىء سواه ، وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه فى هذه الساحة حتى اذا طلع عليه فى موكبه هرعوا اليه صاخبين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التى يرددونها

الآن ، ويصيحون بها فى كل مكان ، فاما أن يصدقهم فقد هلكت هلاكا لا نجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهم فلا يرى له بداً من أن يسلك سبيل الحكمة فى مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والعد بها الى غيرك ارضاء لهم ، وتسكيناً لتأثرهم ، فان فعل فقد انتشرت لك فى الامة قالة سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر

فظل يرتعد ويضطرب ويتردد بينه وبين نفسه : رب ماذا أصنع فالخطب أعظم مما احتمل ، فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وحنت عليه حنو الأم الى رضيعها وقالت له بتلك النغمة العذبة الجميلة التى قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بنى إن الخطب أعظم مما تحتمل ولم يبق بين يديك الا أن تسلك تلك الطريق التى شرع أبوك فى سلوكها قبل موته ثم عجز عن الاستمرار فيها الى نهايتها ، فخسرها وخسر حياته على أثرها ، فنظر اليها مندهشاً وقال ماذا تريدين ؟ فصمتت لحظة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدرى يا قسطنطين لم ذهب أبوك الى شعب تراجان وجلس تحت القوس الرومانى فى الليلة التى مات فيها ؟ فرجعت الى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمى اليه فى حديثها فراعه الأمر وهاله إلا أنه تماسك وتجلد وظل ناظراً اليها نظرات

جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى فى النزع الاخير فاستمرت فى حديثها تقول : انه ذهب الى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركى عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول الى فيدين ، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم ولأطفأ نار هذه الحرب التى تلتهم البلاد التهاماً يكاد يقضى عليها . ولكان اليوم ملكاً جالساً على عرش البلقان ؛ لا تمثالا أجوف منتصباً فى الميدان ، ولكنه عجز فى الساعة الاخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته فما رأى سواد الجيش التركى مقبلا نحوه حتى نسى عهوده ومواثيقه وابتدر الرابية الاولى فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رقدته واستثاره للاهبة والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال وخاض المعركة بنفسه وظل يقاتل حتى هلك

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التى لا يشتمل على مثلها صدر امرأة فى العالم ولا رجل ، ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءها : وبعد فماذا تريدين ؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوؤه ، وخيل اليها أنه قد استخذى للامر واستسلم فقالت : إن العهد السلطانى لابيك بملك البلقان لا يزال باقياً بيدى حتى الساعة وهو مذيل بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل « برانكومير » فلسنا فى حاجة الى تغيير حرف منه أو كتابة عهد

جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركى ليلة أمس واتفقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أبيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لا بد مقتحمو هذه البلاد وآخذوها أبطأوا أم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غد ما من ذلك بد ، فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يداً تنفعك لديهم غداً وأن تفتح لهم بيدك مااستغلق عليهم من أبواب البلاد بدلا من أن يغلبوك عليها لتحتفظ لنفسك بذلك العرش الذى هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله

ان الجنود يضجون ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك فيأمر بالقبض عليك وسجنك ، فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات ويدين لك البلقان من البسفور الى الادرياتيك

أما أنا فانى لا أطلب جزاء عندك على نصحى لك وإخلاصى اليك سوى أن تمنحنى لديك منزلة الام الحنون وتأذن لى أن أجلس على أدنى درجة من درجات عرشك ، أخدمك وأمدك برأيي ومشورتى ، واستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ،

ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطانى وأرته إياه فأخذ يقرؤه وهو فى يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر الى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وأنقذ نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم

ها هى طبول الملك تقترب مناشيئاً فشيئاً واعلم أن قلم القدرة معلق الآن بين أصبعى الله ليكتب به فى صفحات الغيب أحد الحكمين ، إمالك بالصعود الى العرش ، أو عليك بالهبوط الى أعماق السجون ، فأحسن الاختيار لنفسك ولا تكن عدوها الاحمق المأفون

فرفع رأسه ونظر اليها نظرة نارية ملتهبة لو رسمتها ريشة المصور الماهر لأحرقت القرطاس الذى رسمت فيه ، ثم قال لها بهدوء وسكون : قد قلت لى ياسيدتى منذ هنيهة إن أبى قد ذهب الى شعب تراجان ووقف تحت القوس الرومانى ليستقبل الجيش التركى عند قدومه ويأذن له بالمرور فخانه عزمه ونسى ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة فى سوء ظنك به ، فانه لم يزل متمسكا برأيه فى تلك الليلة محافظاً على عهده حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء ، قالت وما الذى طرأ عليه ؟ قال طرأ عليه الموت فحال بينه وبين ما يريد ، قالت وهل تعلم كيف

مات ؟ قال نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه فى تلك الساعة وفى ذلك الموقف سواى ، فارتعدت ونظرت اليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلا بيد أعدائه ؟ قال لا ، بل بيد أصدق أصدقائه ، بل بيد أقرب الأقرباء اليه وأمسهم به رحماً ، فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ما ذا تريد أن تقول ؟ قال أريد أن أقول : إننى أنا الذى قتلته بيدى جزاء له على خيانته لوطنه ، قالت أنت يا ولده وفلذة كبده ؟ قال : نعم وأنت التى وضعت فى يمينى ذلك السيف الذى قتلته به ، لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره وأغريته بخيانة وطنه وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التى كانت تضىء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغلاها ، فلم أر بداً من أن أقتله لأستنقذ الوطن من يده ، فتألمى ما شئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبى ، وتجرعى كؤوس الحسرة والندم على ما أفلتَ من يدك من أمانيك وآمالك ، وحسبى انتقاماً منك على جريمتك التى أجرمتها الىَّ والى أبي والى الطبيعة أن تعلمى أننى أنا الذى خيبت آمالك ، وهدمت بيدى ذلك الصرح العظيم الذى أنفقتِ فى تشييده أيام حياتك

نعم أنا الذى قتلته بيدى واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان فى العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر ببالى

أن إنسانا فى الوجود يقدم عليه ، ولو كان فى استطاعتى أن أكشف أمرك وأهتك الستر عن جريمتك لفعلت ، ولكننى لا أستطيع أن أفعل إشفاقاً على سمعة ذلك الرجل المسكين الذى قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكا لك فى حياتك وفى جرائمك ، فعيشى معذبة مثل فريسة لآلامك وأحزانك ، واستنفدى ماء شؤونك حزناً على العرش الذى فاتك ، والزوج الذى رحل عنك ، واسهرى لياليك الطوال خائفة مرتعبة من شبح الجريمة التى اجترمتها ، وخيال الدماء التى سفكتها ، وليطر قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت فى يد الولد سيفاً ليقتل به الوالد . فمات الوالد قتيلا ، وعاش الولد معذباً ، ولتطل حياتك على ظهر الارض لتطول آلامك وأحزانك ، حتى اذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من العظم ، قد أحرقته اللوعات ، وأضوته الحسرات ، وافترسته الهموم والاحزان

وهنا سمعت ضجة عظيمة فى الساحة وهاتفون يهتفون الملك ! الملك ! فاكتأب قسطنطين وتقبض وجهه ، وتهللت بازيليد وتطلقت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها فى جيبها ، ثم قالت له : نعم اننى سأعيش ياقسطنطين حزينة باكية كما قلت مامن ذلك بد ، ولكننى لاآذن لك أن تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر

الارض حتى لا ترى بعينيك مصائبي وآلامي ، وتشمت بهمومي وأحزاني ، فقد دسست لك الدسيسة في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغل الثقيل ، غل الخيانة الذي لا خلاص لك منه ، وستري الآن بقية ثأري وانتقامي

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يامولاي ، انه قد مالأ الاعداء علينا ، انه أفنى رجالنا ورمل نساءنا ويتم أطفالنا فأعدنا عليه ، وانتقم لنا منه وللوطن ، والملك يقول : دعوني وشأني ، لاأصدق شيئاً مما تقولون ، ثم التفت الى قسطنطين وقال له أيها البطل العظيم : ان الوطن في خطر وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا ، وسأكون في المعركة المقبلة جندياً من جنودك ، أقاتل بجانبك ، وأبارك خطواتك ، ولاتبتئس بمايقول هؤلاء القوم ، فانهم لا يعلمون من أمرك شيئاً ، إنا لا نعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلا غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلا غير أبيك ، ولا نضمر لكما في قلوبنا غير الاجلال والاعظام ، لمكانكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنه ، أما الحظ الذي فارقك من تلك الوقائع الماضية فأبشر أن عهد فراقه لا يطول ، وأنه سيعود اليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو

بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت الى الجنود وقال لهم : يا أبطال البلقان وحماته ، لاتخذلوا قائدكم ، ولا تحفروا ذمته ، فهو سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ، واعلموا أننى لا أصغى الى تهمة لاأعرف لها برهاناً ولا دليلا

فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوت هنيهة ، وقد بدأت مراجل غيظهم وموجدتهم تفتر وتتقاصر ، وهنا انفرج الجمع واذا بيازيليد تتقدم رويداً رويداً كما ينساب من مكمنه الأرقم نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود ، أنا التى أتهمه يامولاى ، وأنا التى أقدم لك على تهمته الدليل والبرهان ، فدهش الملك عند رؤيتها وقال الاميرة؟ قالت نعم يامولاى أرملة القائد ميشيل برانكوميز ، إننى أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالأة أعدائهم عليهم ، وأقول لك انه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد فى الساعة التى يريدونها فيمنحوه فى مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعانى الساعة ليشركنى معه فى هذه الجريمة التى يريد اقترافها ، ويسألنى أن أساعده عليها ، فلم أر بداً من أن أرفع أمره اليك ، أما البرهان الذى تريده فهاهو ذا ، ومدت يدها اليه بتلك الوثيقة . فتناولها الملك ذاهلا وأخذ يقرؤها وهو يرتعد ويرتجف ويقول فى نفسه ماذا أرى؟

إخلاء الحدود! اجتياز الجبال! العرش! التاج! ختم برانكومير! ياللهول ويا للفظاعة! ثم نظر الى قسطنطين؟ فاذا هو تمثال جامد لا يتحرك ولا يطرف، فتقدم نحوه خطوة وقال ما هي كلمتك ياقسطنطين؟ فصمت ولم يقل شيئاً، فالتفتت اليه بازيليد وقالت له: أتستطيع أن تنكر شيئاً مما أقول؟ فأوثقته وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً، الا أنه رفع رأسه ونظر اليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها، ثم عاد الي صمته واطراقه، فهاج الجند وأخذوا يصيحون: القتل القتل، الانتقام الانتقام، وظل الملك يشير اليهم بيده يدعوهم الى السكون والهدوء حتى هدأوا، فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى، ماذا تقول يا قسطنطين؟ دافع عن نفسك، فان سكوتك حجة عليك، لا تصمت ولا تطرق، وقل كلمة واحدة فانى أصدقك فى كل ما تقول، فاستمر فى صمته وإطراقه وهو يقول فى نفسه: كيف أدافع عن نفسى، وأى سبيل أسلكه الى ذلك، والسبل جميعها وعرة شائكة لا تقوى قدمى على اجتيازها، اننى لا أستطيع أن أبرئ نفسى الا اذا اتهمت أبى وقد قتلته مرة فلا أقتله مرة أخرى، ثم ابتسم ابتسامة المتعض وقال فى نفسه قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءنى يسعى الى بقدميه،

فلمَ أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون ، ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له ليس عندى ما أقوله لك ياسيدي فاصنع بى ما تشاء

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ، وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه فان أمره موكول إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن فى الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملمة بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب وأنا قائدكم

ثم التفت إلى الحراس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به إلى السجن حتى يفصل القضاء فى أمره

فهتف به قسطنطين وقال : لى كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يامولاى ، فذعرت بازيليد وارتعد لازار واشرأبّ القوم بأعناقهم والتفت اليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يامولاى أننى جندى قديم ولدت فى ساحة الحرب وقضيت حياتى فى ميادينها ولا أمنية لى فى الحياة غير أن أموت فيها ، وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر والنهى فيه ، فائذن لى أن أسير فى ركابك جندياً صغيراً ، لا قائداً ولا أميراً ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك علىّ عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة

الا منتصرا أو محمولا على الأعواد إلى حيث آوى إلى منزلى الأخير الذى لا رجعة لى منه علنى أكفر بذلك عن زلتى التى زللتها وأنتقم من نفسى بنفسى ، فعجب الملك لأمره وظل يردد نظره فى وجهه هنيهة وكأنّ نفسه كانت تحدثه ببراءته وطهارته إلاّ أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زوى وجهه عنه وقال له : لا أستطيع أن آذن لك بشىء فالموت فى ساحة الحرب منزلة لا ينالها إلا الامناء المخلصون

فتنفس الجمع الصعداء وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمتاه لك أيها الفتى المسكين !

فتقدم الحراس إلى قسطنطين فقيدوه وجاءت بازيليد فوقفت بجانبه وقالت له بصوت خافت لا يسمعه سواه : نعم إننى سأقضى ما بقى من أيام حياتى حزينة باكية متألمة كما قلتَ ولكننى قد انتقمت لنفسى وحسبى ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره إليها احتقاراً وازدراء بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يارب فى كل حين وأضرع إليك فيه ليلى ونهارى فبعثت به إلىّ ولكن فى أفظع صورة وأهولها ، فامدد إلىّ يد معونتك ورحمتك لأستطيع أن أشرب الكاس حتى ثمالتها ، وخذ بيدى فى شدتى فقد تخلى الناس جميعاً عنى ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدى ، وليس بجانبى من يخفف عنى لوعتى ، أو يمسح بيده دمعة من دموعى ،

فخرجت مليتزا من وراء ستار كانت مختبئة فى طياته وتقدمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقين وقالت له : لست وحدك يامولاى فهاءنذا ، فتهلل وجهه بعد عبوسه وقال : أحمدك اللهم حمداً كثيراً ، ثم خرج مع الجنود يرسف فى قيوده حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه اياه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت مليتزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تندبه وتبكيه بكاء تهتز له جوانب الأرض وتتداعى له أركان السماء

﴿ التمثال ﴾

انتصر الملك فى الواقعة التى حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيما كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التى كان يبثها فى نفوس جنده أثناء المعركة . فقد كان يمشى بين الصفوف بطيلسانه الأسود والصليب فى يده يهتف باسم المسيح والمسيحية وينادى : دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم ان غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر ، وهم يستبسلون ويستقتلون ، ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم بارقة النصر فاطبقوا على جيوش العدو من كل

جانب فتقهقرت أمامهم إلى ماوراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التى اجتازتها بالأمس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالا عظيما دام عدة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التى اجترمها والجزاء الذى سيلقاه فى سبيلها ، وكلهم يتمنى بجدع أنفه أن يشاهد مصرعه ، ويرى دماءه تتدفق من بين لحييه

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذى يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر فى تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة إلى السجين فى سجنه وخلا به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها . وحاوله فى ذلك محاولة كثيرة فلم ينطق بشئ ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عىّ الملك بأمره فأمر باخراجه من السجن إلى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه وأمر أن تشد باغلاله إلى قاعدة التمثال نكاية به وتمثيلا ، ثم قال له انظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صنعت يدك بذلك البناء الذى ابتناه ، وتركه وانصرف

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر فى شأنه وفى مصيره الذى صار اليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس والحراس فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدُك وعظمتك وتمثالك الشامخ الرفيع الذاهب بعلوه فى آفاق السماء

هنيئاً لك الصيتُ البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد المسجل لك فى صفحات التاريخ ، وأن الناس لايمرون بتمثالك حتى يخشو تحت قاعدته جثيهم تحت قدمى الاله المعبود

أترىً بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون أو أن الضربة التى أصابتك من يدى قد حرمتك شيئاً فى هـذه الحياة تندبه وتأسف عليه ؟

لقد كنت فى الساعات الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن بينك وبين الانحدار إلى قبرك إلا بضع خطوات قصار ، فكل ما كان منى لك أنى أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التى كنت تريدها لنفسك ، وقدمت إليك بدلا منها ميتة شريفة مقدسة ترمقها العيون وتتقطع من دونها الاعناق ؛ وألبستك تاجاً أشرف من ذلك التاج الذى كنت تطلبه وتسعى إليه ، وأجلستك على عرش أرفع من جميع عروش الأرض ، وهو عرش التاريخ

لا تستبق فى نفسك شيئاً من الضغن علىّ ، ولا تضمر لى فى قلبك وأنت فى عالم الحقيقة المجردة الذى لايخالطه كذب ولا رياء غيرَ مايجب على المريض المبل أن يضمره لطبيبه الذى شفاه

من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فان كان لابد لك أن ترى انى قد أجرمت اليك ووترتك ، فهاءنذا أكفر عن جريمتى بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته

أنظر يا أبت ماذا صنعتْ فعلتك التى فعلت بولدك ، هاهو الغل يحيط بعنقه حتى كاد يخنقه ، وهاهى القيود تعض قدميه وتدميهما ، وهاهو السيف مجرد فوق هامته لاتطلع الشمس من مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ، وهاهم الناس جميعاً رجالا ونساء كباراً وصغاراً يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم فى كل مكان ، ويضمرون له من الحقد والبغضاء مالو امتدّ إلى جسمه لأحرقه وأحاله رماداً بارداً

أنت المجرم وأنا المعاقَب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخياناتك ، أنت المتمتع بنعمة الشرف العظيم الذى لاتستحقه ، وأنا المتسربل بسربال الاهانة الدائمة التى لا أستحقها ، لقد أخطأ القدر فى أمرنا مرتين ، فرفعك من حيث تستحق الوضع ، ووضعنى من حيث أستحق الرفع ، ولو أنه أنصف فى حكمه بيننا لأخذ كلٌّ منا مكان صاحبه ، فأصبح التمثال لى ، وأصبح السجن لك

هنيئاً لك مجدُك وشرفك وصيتك وسمعتك ، وما أهنئك تهنئة الهازئ الساخر بل تهنئة الفارح المغتبط ، لانك أبى ،

ورئيس أسرتى ، وسيد قومى ، وحبيب إلىّ جداً أن يعيش أبى عظيما فى حياته وبعد مماته

إن آلامى يا أبت عظيمة جداً لاتستطيع أن تحتملها نفس بشرية فى العالم ، ولكن يهونها على أننى أموت من أجلك ، وفى سبيل مجدك وشرفك ، وأننى لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سمائه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتها

ما أنا بنادم على ما كان ، ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت إلىّ فى الساعة التى يريدها ، فقد قمت بواجبى لك ولبلادى ، وحسبى ذلك وكفى

كان لابد لى أن أقتلك ففعلت ، ولكننى قتلتك فيجب أن أُقتل بك

كلانا أجرم وكلانا لقى جزاء إجرامه

أجرمت الى الوطن فانتقمت له منك ، وأجرمت الى الطبيعة فمن العدل أن تنتقم لنفسها منى ، فما أظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه

إرفع رأسك أيها الرجل تيهاً وعجباً ، وزاحم بمنكبيك أجرام السماء وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فان لم

تكن شريفاً بنفسك ، فحسبك شرفاً أنك والد الولد الشريف

ولم يزل فى مناجاته هذه حتى مضت هدأة من الليل فالتف بردائه ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه الى نوم طويل

﴿ النهاية ﴾

ازدحم الناس يوم المحاكمة فى الساحة الكبرى ازدحاماً عظيماً ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم والمتهم هادئ ساكن تحت قاعدة التمثال لاينتظر شيئاً ، لانه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به

وإنهم لكذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته فاشرأبّت اليه الأعناق لسماع كلمته ، ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر اليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته : ياقسطنطين برانكومير ! ان الجريمة التى اقترفتها عظيمة جداً لايفى بها قتلك وسفك دمك ، لذلك رأى مجلس القضاء أن يحكم عليك بالحياة بدلا من الموت ... فقاطعه الجماهير ، الموت ! الموت ! لابد من قتله ! لايمكن أن يعيش ! فأشار اليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدءوا فاستمر يقول : وأن تظلّ طول

أيام حياتك مقروناً بأغلالك هذه الى قاعدة تمثال أبيك ليتردد وجهه في وجهك ليلك ونهارك فتموت في مكانك حياء منه وخجلا ، وأن يؤذن لكل مارٍّ بك من علية الناس وغوغائهم أن يبصق على وجهك ويصفعك على قذالك وينال منك ما يشاء الا أن يسلبك حياتك

فصاح الجماهير : يعيش الملك ! يحيى العدل ! يسقط الخائن !

وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلا

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذى لم يبك في يوم من أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ، وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما يفعل النساء الضعيفات في مواقف حزنهن وثكلهن ، وما كان مثله من يبكى أو يذرف دمعة واحدة من دموعه لو أن الذى كُتب له في صحيفة الغيب من الشقاء كان الوقوفَ بين السيف والنطع أو السقوطَ بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه ما تشاء ، ولكنه الشرف ، شديدٌ جداً على صاحبه أن تنزل به نازلةُ مذلةٍ ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان ، فاذا شعر بشيء من ذلك هاله الامر وراعه ، وخارت عزيمته ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعولَ إعوال النساء ، ولقد رضى قسطنطين من حظه من الحياة بالموت فراراً

من العار الذى لحقه ، وهرباً من نظرات الناظرين اليه ، وموجدة الواجدين عليه ، أمّا وقد علم أنه سيعيش والعارَ معاً رفيقين متلازمين ، لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبق له بد من الجزع ، ولم يبق بين يديه سبيل غير البكاء ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، وأخذ يردد بينه وبين نفسه : يالبؤس ويالشقاء ، لقد استحال علىّ كل شىء حتى الموت ، ثم رفع طرفه الى السماء وقال بصوت خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك من شؤون نفسى شيئاً ، فامدد الىّ يد عنايتك ولطفك لأستطيع أن أتم واجبى إلى النهاية

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة ، وكان لايزال رأس الفتنة وشعلتها ، وأخذ يصرخ بصوت عال قائلا : إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة فقد أوشكت صدورنا أن تنفجر ! فصاح الجمهور عن ورائه صيحته ، ودعَوْا بمثل دعوته ، فاصفر وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت خافت متهافت : لكم ما تشاءون ، وتحول من مكانه يريد الانصراف

وهنا برزت مليتزا من بين الجماهير واندفعت نحو قسطنطين تسبق المندفعين اليه ، وهى تقول : فليبق لك أيها المسكين على الاقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك ، وضمته الى صدرها

كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ماخطبها ، ثم مشى نحوها وقال لها ، أتعلمين أيتها الفتاة من هذا الذى تحمين ؟ وما جريمته التى اقترفها ؟ فرفعت رأسها اليه وألقت عليه نظرة الليث فى عرينه وقالت له : لاأعلم من أمره شيئاً سوى أننى أحبه ، ولا آذن لأحد أن يناله بمكروه وفىّ بقية رمق من الحياة ، قال إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للامة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت ان الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شىء فى العالم . فزقونى إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا اليه

فلمعت فى ثغر قسطنطين ابتسامة فى وسط هذه الدجنة الحالكة من الهموم والاحزان وضمها الى نفسه وقال لها : شكراً لك ياماريتزا فقد أحييت نفسى الميتة وسريت عنى همومى وآلامى ، ذودى عنى ياصديقتى ، وصونى وجهى من العار الذى يريدون أن يلصقوه به ، فلم يبق لى فى العالم من يرحمنى أو يعطف علىّ سواك

وأخذ الجماهير يصيحون : اقتلوهما معاً ، مزقوا جسميهما بالسيوف ، انثروا اشلاءهما فى الفضاء ، ثم تدفّعوا نحوهما تدفع

الصخور الهائلة من أعالى الجبال ، فصاحت مليتزا : أيتها الوحوش الضارية ، والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ، وعظمت قوتكم ، فانكم لن تستطيعوا أن تصلوا اليه أو تلحقوا به اهانة من الاهانات التى تضمرونها فى نفوسكم ، فان أبيتم الا أن تفعلوا فاعلموا أننى أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم ، فلم يحفلوا بكلامها ولم يفهموا غرضها واستمروا فى اندفاعهم وتدفقهم

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذى شخصت له الابصار ، وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء فى العروق ، فقد علمت مليتزا أن القضاء واقع لامفر منه ، وأن القوم لابد بالغون من قسطنطين ما يريدون ، وأن لاطاقة لها بحمايته والذود عنه ، وهالها هولا عظيما وكبر فى نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلألىء بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يصبح هدفا دنيئا لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يلطمه من يلطم ، ويبصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ، ولم يبق بينهم وبينها الا بضع وثبات ، حنت عليه وهمست فى أذنه قائلة : فى استطاعتك ياسيدى أن تنجى نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شىء ، فرفع طرفه الى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر اليها نظرة دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع »

فجردت من منطقتها خنجرها الذى كانت قد استهدته اياه فيما مضى ورفعته فى الهواء ثم طعنته به فى صدره طعنة نجلاء وهى تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت شريفاً، وسأتبعك الى سمائك التى تصعد اليها ، فسقط مضرجاً بدمائه وهو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكراً لك ياملينزا

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت به نفسها ، فترنحت قليلا ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لايزال يعالج السكرة الاخيرة ، ففتح عينيه فرآها فأخذ يسحب نفسه سحباً حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها الى نفسه فلم يستطع فسقط رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت ما بين شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت فى ظلمات الموت ، وظلاّ على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما

فأثر هذا المنظر الرهيب فى نفوس الجماهير وسكنوا فى مواقفهم سكوناً عميقاً لاتتخلله نأمة ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن والأسف قائلا : أيها المسيحيون ، صلوا جميعاً لهذين البائسين الشقيين واسألوا الله لهما الرحمة والغفران

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه فرفع القوم قبعاتهم وجثوا حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة كأنما هم يبكون عزيزاً عليهم ، أو شهيداً من شهدائهم ، وما فعلوا غير كذلك لو كانوا يعلمون

* * *

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لايعلمها أحد من الناس خمسة وثلاثين عاماً حتى حضر بازيليد الموتُ فظلت تهذى بها فى مرضها ، وترددها فى يقظتها وأحلامها ، وتتألم لذكراها ألماً شديداً على مسمع من كاهنها وعوادها حتى فاضت روحها ، فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل وبعد أن تبدلت شؤون البلقان غير شؤونه أن « قسطنطين برانكومير » أشرف الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية واخلاصاً ، لانه ضحى أباه فى سبيل انقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه فى سبيل انقاذ شرف أبيه ، فبلغ فى وطنيته وشرف نفسه الغاية التى لاغاية وراءها

تمت